أنباء أهل الأمم

وَسُنَّة اللهِ في القَوْمِ المُجْرِمينَ وَالمُنحَرِفينَ

تأليف
الشيخ عبد الله التليدي
حفظه الله

دار البشائر الإسلامية

حُقُوق الطبع محفُوظة

الطبعة الثانية
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

دار البشائر الإسلاميّة
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان - ص.ب: ٥٩٥٥-١٤

أسباب هلاك الأمم

وسُنّة الله في القوم المجرمين والمنحرفين

تأليف
الشيخ عبد الله التليدي
حفظه الله

دار البشائر الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

اللهم لك الحمد، لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وصل اللهم على عبدك ورسولك سيدنا محمد أشرف خلقك، وعلى كلٍ من آله وصحبه وحزبك.

وبعد، فقد كَثُرت الشَّكايات وبَدَا على كثير من طبقات المسلمين أثرُ الأسى والتَّحَسُّر من حالتنا الحاضرة التي بلغت بنا المنتهى في التدهور الخلقي، من انحراف بالعقيدة وانحلال في الأخلاق والسلوك، إلى مظاهر خليعة ووقاحة بالغة، إلى مخامر ومراقص ومقامر، إلى انتشار في الربا وفشوّ في الزنا وتفكك كامل من العفة والصيانة، إلى كثرة الفتن بكل ألوانها وأوصافها، وإلى وإلى من المصائب والويلات التي تُهددنا وتهدد العالم أَجْمَع بالخراب وتنبؤنا بدواهٍ مقبلة وبعقاب عظيم مرتقب.

فحالتنا اليوم بحق تستحق العويل والرثاء لأن مجتمعنا المسلم الطاهر أصبح في جاهلية جهلاء، فكل أنواع المعاصي والجرائم والفُسوق والفُجور بل والإلحاد والكُفريات على اختلاف أشكالها وألوانها باديةً بأجلى مظهر عَرفته البشرية، وذلك لاستيلاء سلطان الهوى على النفوس، وتوغل الناس في الإنهماك في شهوات بطونهم وفروجهم أو ما يؤول إلى ذلك، مع اقتفائهم أثر أوروبا والغربيين المجانين.

ولا ينقضي عَجَبي من الكثيرين الذين يُكثرون من ترديد الحَوْقَلة والاسْتِرْجاع عندما تُقابلهم وتفتح معهم المحادثة في حالة المسلمين الراهنة، مع أنّه ما من فرد منهم - إلا من رَحِم الله - إلا وقد أحاطت به أخلاق وخيمة وخطيرة فيه وفي أهله وعائلته، قد تعود على المجتمع بالتهديم والتخريب - كما هو الواقع -، وتقضي على الناشئة والبقية الباقية من الشباب المسلم، وتنشر بين سائر طبقات الأمة جُذور الفساد وأسباب الهلاك كما حصل عملياً.

فاسترجاع أمثال هؤلاء وتظاهرهم بالأسى والتَّحزن هو من الاستهزاء بالله والسخرية بدينه، وذلك لا يرفع عنهم العتاب ولا يدفع عنهم اللَوْم والتَّأْنِيب ولا هو بعذر مقبول لهم عند الله عزّ وجل، بل هم مسؤولون أمام الله عن إهمال عائلاتهم وتربيتهم التربية الإسلامية الحقة الصحيحة، كما هم مسؤولون كذلك عن أنفسهم وتهذيبها وتقويمها. وفقنا الله وجميع المسلمين للتمسك بدينه القويم وهدانا وإياهم لصراطه المستقيم.

وهذه نُبذ وجُمل جَاد بها الفكرُ العليل تتعلق بسنن الله تعالى في المجرمين والمنحرفين مع بيان أسباب هلاك الأمم الجارية على سنة الله عزّ وجل في هذا الكون، وهي تُحفة للمؤمن الكريم وهدية ثمينة للقارئين والدراسين سيستفيدون منها لدينهم فوائد هامة.

وطريقتي في هذا الكتاب أنني أورد أولاً ما جاء من آيات قرآنية في سنن الله تعالى المُتعلقة بشؤون عباده، كسُنَّته في الذنوب وشؤونها وآثارها، وسنته في بعثة الرسل وحكمتها، وسنته في ابتلاء العباد بالحسنات والسيئات ليهذِّبهم ويربيهم، وسُنَّته في استدراجه الظالمين والمُنحرفين، وسنته في المُترفين والضعفة ومواقفهم إزاء دعوة الرسل وخلفائهم، وسُنته بالاعتبار بالأمم الغابرة والاتعاظ بأحوالهم، وسُنته في هلاك الأمم والأجيال إذا طغت وأسرفت بالذنوب، وسنته في أنواع العذاب الذي يُهلك الله ويُعذب به من شاء تعذيبه، وسنته تعالى في عباده وقت حلول العذاب بهم.

وعندما ننتهي من هذه الفَذْلَكَة[1] الهامة النافعة من السُنن الالهية، ننتقل ثانياً لإيراد بعض ما وقفت عليه من الأحاديث النبوية الصحيحة الواردة في أسباب الهلاك، مع تحليلها وشرحها شرحاً مبسطاً يفهمه كل الطبقات من المسلمين. والله أسأل أن يجعل كل ذلك خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني وإخواني المسلمين بذلك إنه جواد كريم.

---

(١) أي مجمل ما فصّل من الأمور.

المعاصي والتحذير منها

بما أن المحور الذي يدور عليه هلاك الأمم هو الذُنوب على اختلاف أنواعها، رأينا من الأَليَق أن نُقدم أمام الموضوع بالكلام على الذنوب والمعاصي وحقيقتها ومراتبها وعلاماتها ودوائها لأن معرفة الشر ليست بأقل أهمية من معرفة الخير، فكما أنّه لا بُدّ للمسلم من معرفة أنواع البرِّ والطاعة ليعمل بذلك، فكذلك لا بُد له من معرفة المعاصي والسيئات ليجتنبها أيضاً كما جاء في حديث حُذيفة المشهور: «كان الناسُ يَسألونَ رسولَ الله ﷺ عن الخير وكُنْتُ أسألُه عن الشر مخافةَ أنْ يُدرِكَني» الحديث بطوله في الصحيح.

المعصية وعلاماتها

المعصية هي الإثم والسيئة والشر والمنكر والقبيح والمذموم والحُوب - بضم الحاء -، وهي تَنشأ عن مخالفة الأمر والنّهي أو ما يؤول إليهما. ولمعرفتها قواعد إسلامية وعلاماتُ تدل عليها وتُعرف بها أنها معصية، ولذلك أمثلة كثيرة معروفة بالتتبع عند أهل العلم من الكتاب والسنة وهَاكُم بعض ذلك:

فكل شيء طلب الشارع تَرْكَه أو ذمّه أو ذمّ فاعله أو عتب عليه أو مقت فاعله، أو لعنه أو نفى محبته أو محبة فاعله، أو الرضى به أو عن فاعله أو شَبَّه فاعله بالبهائم أو بالشياطين، أو جعله مانعاً من الهداية أو من القبول أو وصفه بسوء أو كراهة أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعله سبباً لنفي الفلاح أو لعذاب آجل أو عاجل أو لذم أو لَوْم أو ضلالة أو معصية، أو وُصِف بخُبثٍ أو رجس أو نجس أو بكونه فسقاً أو إثماً، أو سبباً لإثم أو رجس أو لعن أو غضب أو زوال نعمة أو حلول نقمة أو حد من الحدود أو خزي أو ارتهان نفس أو لعداوة الله ومحاربته أو لاستهزائه أو سخريته، أو جعله الله سبباً لنسيان فاعله، أو وصَفَ نفسه بالصبر عليه أو بالحلم أو بالصفح عنه أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخُبث أو احتقار، أو نسَبَه

إلى عمل الشيطان أو تزيينه أو تولي الشيطان لفاعله، أو وُصِف بصفة ذم ككَونه ظُلماً أو بَغْياً أو عُدواناً أو إثماً أو مرضاً، أو تَبرأ الأنبياء منه أو من فاعله أو شكوه إلى الله من فعله أو جاهروا فاعله بالعداوة أو نُهوا عن الأسى والحزن عليه، أو نُصِب سبباً لخيبة فاعله عاجلاً أو آجلاً أو رتّب عليه حِرْمان الجنة وما فيها، أو وصَف فاعلَه بأنّه عدوٌ الله أو بأن الله عدوّه أو أعلمَ فاعله بحرب من الله ورسوله أو حمّل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه لا ينبغي هذا أو لا يكون أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه أو أمر بفعل مضاده أو بهجر فاعله، أو تَلاعَنَ فاعلوه في الآخرة أو تبرأ بَعضُهم من بعض أو دعا بعضهم على بعض، أو وصف فاعله بالضلالة أو أنه ليس من الله في شيء أو ليس من الرسول وأصحابه، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح أو جعله سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله أو رتب عليه إبعاداً أو طرداً أو لفظة قُتِلَ مَن فَعَله أو قَاتَلَه الله، أو أخبر أن فاعله لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه ولا يصلح عمله ولا يهدي كيده أو لا يفلح، أو قيض الله له الشيطان، أو جعل سبباً لإزاغة قلب فاعله أو صرفه عن آيات الله[1].

فكلُّ هذه الأنواع تَدُل على أن ذلك الفعل المَنُوط بها معصية في الأغلب، وقد يدل بعضُها على الكراهة وذلك يُعرف بالقرائن، والله تعالى أعلم.

أنواع المعاصي

والمعاصي نوعان: كبائر وصغائر. فالكبيرة هي كل ما تَوعَّد الشارعُ عليها بالنار أو رتّب عليها اللعنة أو حدّاً من الحُدود، وهذا أصحّ ما قيل في تعريفها، وانظر كتاب الإيمان من شرح النووي على صحيح مسلم.

ثم إن هذه الكبائر ليست بمُتَساوية ولا هي في درجة واحدة بل هي متفاوتة بعضها أعظم في الجرم من بعض، ولذلك جاء في القرآن الكريم والسُنة الشريفة بيان مراتبها في كثير من نصوصهما المعلومة بالتتبع.

---

(١) وانظر هذه الأنواع في «قواعد» العز ابن عبد السلام، و«الإتقان» و«الإكليل» للإمام السيوطي رحمهما الله تعالى.

فأكبر الكبائر الشِّركُ بالله والسحرُ وقَتْل النفس بغير حق وأَكْل الرِّبا وأكل مال اليتيم والتولّي يوم الزحف ـ الفرار من المعركة ـ وقَذْفُ المُحصنات المؤمنات الغافلات ـ الطعن في النساء الصالحات العفيفات ورَمْيهن بالزنا ـ، وكذا ترك الصلاة ولو صلاة واحدة حتى يَخرجَ وقتُها[1]، والزِّنا ولا سيما بحَلِيلةِ الجار ـ زوجته ـ واللِّواط، والسرقة وشرب الخمر وعُقوق الوالدين ـ إذايتهما والإساءة إليهما ـ، وشَهادة الزور والكَذِب واليمين الغَمُوس ولعن المسلم والغيبة والنميمة والحسد ومُقاطعة المسلم بغير مبرر شرعي معتبر، وإيذاء الجار وتبرّج النساء وخُروجهن عَرايا والدِّيَاثَة ـ وهي إقرارُ الرجل المنكرَ على أهله ـ، والحُكم بغير ما أنزل الله والحَلْف بغير الله والأمن من مكر الله واليَأس من رحمة الله، والغلول من الغنيمة ـ السرقة منها قبل أن تقسم ـ وترك الجهاد إنْ تعين عليه، وتَحْلِيل المُطلقة ثلاثاً ـ فإنه التَّيْسُ المُستعار ـ، والاستسقاء بالنجوم والإنتساب لغير الأب والأصل والطعن في الأنساب، والنِّياحة على عادات الجاهلية مع شقِّ الجُيوب ولَطْمِ الخدود، وعدم اتقان الغُسل والوضوء وتركُ الزكاة وإفطار يوم من رمضان تعمّداً، وتركُ الحج مع الإستطاعة والرَّفَث والفُسوق والإلحاد بالحرَم واستحلال الحرم الشريف، وتركُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجور في الوصية والخيانة ونَقْضُ العهد والخروج على الإمام الحق، وتشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال والوَشْم والتَفْليج ـ بَرْدُ ما بين الأسنان ليصير ذا فُلجَة ـ، والتَّنْمِيص ـ نَتْف الشعر من الوجه ـ ووصلُ الشعر والتَّصْوير لما فيه روح، والظِّهار ـ تحريم الزوجة كظهر الأم ـ، وأكلُ المَيْتة والدم المَسْفوح ولحم الخنزير وما ذُبح لغير الله أو ذُكر عليه اسم غيره، والركون إلى الظَلَمة والمُيول إليهم وأحرى معاونتهم على ظلمهم، وموالاة الكفار والتشبه بهم التشبه المطلق، واتهام الأبرياء بالإثم وأكل أموال الناس بالباطل وكتمان الشهادة إلى غير ذلك مما بلغ المئات. فهذه كلها كبائر وبعضها أعظم من بعض.

---

(١) جعل الإمام أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى ترك الصلاة بعد الإشراك والكفر بالله وقبل قتل النفس، انظر ١٠/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣ من كتاب الدماء من «المحلى». أما أحمد بن حنبل الإمام رحمه الله تعالى فإنه يعتبر إخراج صلاة واحدة عن وقتها كفراً وردة، عياذاً بالله تعالى.

أما الصغائر فكثيرةٌ أيضاً وذلك كَتَطْفِيف نحو تمرةٍ، والنظر إلى محاسن المرأة أو الأَمْرَد مع شهوةٍ أو تقبيلهما، أو مشيٍ إلى موعد امرأة مثلاً أو مصافحة أجنبية أو خُلوةٍ معها، وسماعِ الملاهي ومجالسةِ الشاربين وقتَ شُربهم، وسوءِ الظن بالمسلم، وسبِّ الولد أو الغلام أو ضربهما زيادة على المصلحة، إلى غير ذلك.

وهذا التقسيم في الحقيقة نِسبي، أمّا المعصيةُ فهي في الواقع ليس فيها صغيرةٌ بالنسبة لمخالفة أمر الله تعالى، فإنّ المخالفة لله عظيمة وعظيمة، وهذا هو مُراد بعض السلف رضي الله تعالى عنهم حيث قالوا: لا صغيرة. فقد قال النووي في شرح مسلم: «جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كُلّ شيء نهى الله عنه فهو كبيرة، قال: وبهذا قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني، وحكى القاضي عياض رحمه الله تعالى هذا المذهب عن المحققين، واحتج القائلون بهذا بأن كل مخالفة فهي بالنسبة إلى جلال الله تعالى كبيرة». ثم ذكر المَذْهبَ الصحيح وأنّ فيها كبائر وصغائر لتظَاهُر الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة.

ملاحظة هامة

غَلط هنا أقوام فظنّوا أنّ الصغيرةَ لا تَنْقلِبُ كبيرة بحال، والحقيقةُ أنّها تبقى صغيرة ما دام صاحبها يرتكبها الآونة بعد الآونة ولم يُصرّ ويُداوم عليها وإلا أصبحت ملحقة بالكبائر.

قال النووي في شرح مسلم ٢/ ٨٦ - ٨٧: «قال العلماء رحمهم الله: والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة. ورُوي عن عمر وابن عباس وغيرهما رضي الله عنهم: لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار، معناه أنّ الكبيرة تُمحى بالاستغفار والصغيرة تَصيرُ كبيرة بالإصرار، قال الشيخ أبو محمد ابن عبد السلام في حَدِّ الإصرار: هو أن تتكرّرَ منه الصغيرة تَكراراً يُشعر بقلّة مُبالاته بدينه إشعارَ ارتكاب الكبيرة بذلك قال: وكذلك إذا اجتمعت صغائر مختلفة الأنواع . . إلخ».

وذكر أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه في «الإحياء» عدة أشياء تَصيرُ الصغيرةُ بها كبيرة، فقد قال ما مُلخصه: اعلم أن الصغيرة تَكبرُ بأسباب: منها

الإصرار والمواظبة، ومنها أن يستصغر الذنب، فإنّ الذنب كُلما استعظمه العبدُ من نفسه صغُر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى، لأن استعظامه يَصدُر عن نُفور القلب عنه وكَراهيته له واستصغاره يصدر عن الألف به[1].

ومنها السرورُ بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكُلما غَلَبت حلاوةُ الصغيرة عند العبد كَبُرت الصغيرة وعَظُمَ أثرها في تسويد قلبه[2].

ومنها أنْ يتهاونَ بستر الله عليه وحلمه عنه وإهماله إياه، ولا يدري أنه إنما يسهل مقتاً ليزداد بالإهمال إثماً، فيظن أنّ تَمَكُّنه من المعاصي عناية من الله به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله.

ومنها أنْ يأتي الذنبَ ويُظْهره بأنْ يَذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مَشهد غيره، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سَدَله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت بهما.

ومنها أن يكون المُذنب عالماً يُقتدى به، فإذا فعله بحيث يُرى ذلك منه كبر ذنبه، كَلُبس العالم الإبريسم - نوع من الحرير -، وركوبه مَراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخلوه على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأعراض وتعدّيه باللسان في

---

(١) استصغار الذنب من صفات المنافقين، ولذلك جاء في صحيح البخاري ومسند أحمد رقم ٦٢٧ والترمذي رقم ٢٣١٣ - بتهذيبي - عن ابن مسعود رضي الله عنه: إن المؤمن يرى نفسه عند الذنب كأنه تحت جبل يريد أن يسقط عليه، والمنافق يرى ذنبه كأن ذبابة وقعت على أنفه فقال بها هكذا، يعني أزالها أو كما قال.

(٢) أما السرور بالمعصية فليس من شأن المؤمن أيضاً ولا من طبيعته، فقد قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن». رواه أحمد والنسائي في الكبرى عن عمر رضي الله عنه بسند صحيح، ورواه الطبراني عن أبي أمامة، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

فالمؤمن يسر بالحسنة ويستبشر بها ويراها نعمة من الله تعالى، ويغتم من السيئة ويراها مصيبة فيتوب منها ويطلب من ربه العفو عنها.

المناظرة وقصد الاستخفاف، قال: وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرةَ بل كلُ مخالفة فهي كبيرة، وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم للتابعين: إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من المُوبقات. قال: إذا كانت معرفةُ الصحابة بجلال الله أتمَّ فكانت الصغائرُ عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل... إلخ. وهو كلام وجيه بمكان من التحقيق، فرضي الله تعالى عن إمامنا ومرشدنا الغزالي.

وبذلك تعرف خطأ من يَرتَكِب الصغائرَ من الذُنوب ويُصرّ عليها، فإذا نصحته وأرشدته إلى تركها أجابك قائلاً: إنّها صغيرة، والصغيرة تُغفر بالحسنات العامة، فإن ذلك غلط فاحش من هذا القائل.

دواء الذنوب والآثام

جاء في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء»، والذنوب أمراض باطنية بلا شك عند جميع أرباب البصائر، إذ المرض انحراف في المزاج وفساد في الطبيعة يُحدث خللاً في الذّات وألَماً في البَدَن، أو انحراف في الرأي وفساد في النظر والباطن يُحدث خَلَلاً في الدِّين وفساداً في الأخلاق.

فالأوّل المرض الجسمي الطبيعي، وأدويته تُؤخذ من العقاقير وله أُناس خاصون به. أما المرض الثاني فهو الباطن القلبي، ويتنوع إلى ثلاثة أنواع: كُفْر ونفاق ومعاصي[1].

ولُمداوة هذه الأنواع ومعالجتها نَزَلَتْ الكُتب السماوية وأُرسلت الرسل واعتنى الله تعالى بها اعتناء أيّ اعتناء، يَعْرِفُ ذلك مَن وقف على أسرار الشريعة الإسلامية ودرسها دراسة صحيحة، وأمعن نظره في القرآن الكريم والسنة المطهرة وتدبرهما. ولدواء هذه الذنوب وعلاجها أمور نُجملها فيما يلي:

أولاً: الإيمان والإسلام، ففي التنزيل الكريم: ﴿قُل للذين كفروا إنْ يَنْتَهوا يُغفر لهم ما قد سَلَف﴾. وفيه: ﴿وإنّي غَفّار لِمَنْ تَاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾. وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص في قصة إسلامه التي ذكرها لولده عبد الله عند احتضاره، قول النبي صلى الله تعالى عليه وآله

(١) وللذنوب تأثير عظيم في ظلة القلب وضيقه، لا يصفو ويصقل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والصلاة على حبيبه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع حضور القلب، وكثرة تلاوة القرآن الكريم مع التدبر، وملازمة زيارة المقابر والتفكر في أحوال أهلها، وكذا التفكر في آلاء الله ونعمه وآياته الكونية. فإن هذه الأشياء مع كونها تقضي على ظلة القلب وتزيل أثر الذنوب منه، هي بالإضافة إلى ذلك تثير محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتنميها وتنور الباطن، فعليك بها.

وسلم له: «أمَا علمت أنّ الإسلام يَهدِمُ ما كان قَبْلَه، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله». يهدم أي يسقطه ويمحو أثره فلا يبقى عليه إثْمٌ ولا مُناقشة ولا حساب.

ثانياً: الهجرة من دار كُفْرٍ أو فِسق لا يَأمن فيها المسلم على دينه أو التظاهر به إلى دار إسلامية أو غيرها يصح له فيها إقامته شعائر الدين. فالهجرة لذلك لها تأثير عظيم في تكفير الذنوب، وفي حديث عمرو السابق: «والهجرة تهدم ما كان قبلها».

ثالثاً: الحج المبرور، فإنّه دواءٌ عظيم ذو أثَر كبير في تكفير كل الذنوب حتى الكبائر، كما قال جماعة من أئمتنا رحمهم الله تعالى، وذلك إذا كان مستوفي الشروط خالياً مما يُبطله أو يُنقضه. ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «الحجُّ المبرُور ليس له جزاء إلا الجنة». وفي الصحيحين عنه أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «من حج فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ رَجَع كَيْوم وَلَدَتْه أمّه». وتقدم حديث عمرو: «إنّ الحج يهدم ما كان قبله». والحجُّ المبرور هو الكامل الشروط، الخالي من الجدال والفسوق والرفث، المصحوب بإطعام الطعام وإفشاء السلام.

رابعاً: صلاة التسبيح المعروفة، فإنه جاء فيها إنّها تمحو كل الذنوب: الصغائر والكبائر، القديمة والحديثة، العلنية والسرية، أوّلها وآخرها. وحديثها مُخرّج في سنن الترمذي وابن ماجه عن أبي رافع، وفي سنن أبي داود وابن ماجه والمُستدرك عن ابن عباس، وفي سنن أبي داود عن ابن عمرو، وعند الحاكم عن ابن عمر، وعند أبي داود أيضاً عن رجل من الأنصار، وبعض أسانيدها حسنة وهي بمجموعها يرتقي معها الحديث لدرجة الصحيح، ولذلك حسّنه وصحّحه جماعة من الحُفاظ ذكرتُهم في تهذيبي لجامع الترمذي رقم ٤٣٢.

خامساً: الشهادةُ، فإنه يُغفر بها للشهيد كلُّ شيء إلا الدَّين كما جاء في الحديث الصحيح.

سادساً: البرُّ والإحسان بالوالدين، فإن البرور بهما دواء ناجع في القضاء على الذنوب.

سابعاً: الصلواتُ الخمس، ففي الحديث الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «مثلُ الصلواتِ الخمسِ كَمَثَل نهرٍ جارٍ عذب على باب أحدكم يغتسل فيه كلَّ يوم خمس مرات، فما يُبقي ذلك من الدَّنَس» رواه أحمد ومسلم. الدنس: هو الوسخ والدَرَن. وقد استدل بهذا ونحوه من قال: إنها تُكفّر - أعني الصلوات الخمس - كل الذنوب حتى الكبائر.

ثامناً: الطهارة والوضوء، ففي صحيح مسلم عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه خرجت ذنوبُه حتى تخرج من تحت أجفان عينيه، وإذا غسل يديه خرجت ذنوبه حتى تخرج مع الماء أو مع قطر الماء إلخ». وفي الباب أحاديث.

فالحديث قد عمَّم خروج تلك الذنوب كُلها حتى تخرج مع آخر قطر الماء. وجاء في بعض الأحاديث: «وكانت صلاته نافلة فإذا ذهب للمسجد وصلى خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ووجبت له الجنة».

تاسعاً: التوبة الخالصة النصوح، فإنها سبب لتكفير كلّ الذنوب والسيئات إذا وُجدت شروطها، وهي مقبولة قطعاً عند المحققين خلافاً لِمن قال إنها في حق المؤمنين ظنّية، فإنّ الكافرَ ليس بأوفَر حظاً من المسلم ولا بأكرم على الله تعالى منه، وقد أخبر عنه أنه يقبل توبته إذا أسلم ويُكفر له كل ما مضى، فكيف يقبل توبة عدوّه ويَرُد توبة حبيبه؟! هذا مما لا يُعْقَل ولا يُقبل، فكيف ونصوص الشرع تأباه وتَرُدّه، قال الله تعالى: ﴿فمن تَابَ مِن بعد ظُلْمِه وأَصْلَح فإنّ الله يَتُوب عليه﴾. وقال: ﴿وهو الذي يَقْبَلُ التَّوبةَ عن عِبادِه ويَعْفُو عن السيئات﴾. وقال: ﴿إنّما التَّوْبَةُ على الله للذين يَعْمَلُون السوءَ بِجَهالةٍ ثُم يَتُوبون مِنْ قريبٍ فأولئك يتوبُ الله عليهم﴾.

وقال النبيّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر. يُغَرْغِر: أي ما لم تصل روحه إلى حَدّ الغرغرة عند سَكَرات الموت. وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «للّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على راحلته وقد أضاعها وعليها طعامه وشرابه» رواه مسلم، وفرحه تعالى بها دليل على قبوله إياها.

فهذه النصوص وغيرها صريحة في قَبُوله تعالى تَوبة عبده المُذنب لا تقبلُ المُنازعة ولا الجدال، فما على المُسيء إلّا أن يَرجعَ إلى ربه ويقف ببابه وأن لا يَقْنَط من رحمته، فإنه تعالى قد كَتب على نفسه الرحمة وأحقُّ الناس بها المُسيئون المُذنبون إذا رجعوا إليه ووقفوا ببابه.

التوبة وشروطها

التوبة معناها الرجوع، يُقال: تاب وأناب وآب بمعنى رجع، وهي في الإسلام الرجوع من الكفر إلى الإيمان أو من المعصية إلى الطاعة، فكأنّ العاصيَ المُنحرف كان مُعرضاً عن الله مُدبراً عن تقواه فتاب وأقبل عليه وعلى طاعته.

وقد جعل سبحانه وتعالى ـ تفضُّلاً منه وإحساناً ـ تكفيرَ الذنوب ومَحْوَ الخطايا والزَّلَل مَنُوطاً بالرجوع إليه، فمن تاب إليه بعد الذنب والإجرام مُنكسرَ القلب خاشعَ الجوارح ظاهر الافتقار ذليلاً لمولاه، قبله الله تعالى وغمره بفضله ورحمته.

ثم إن لِقَبُول التوبة شروطاً لا مَحيد عنها قد دلّت عليها نصوص الشرع وأيَّدتها قواعده:

الأوّل: النّدم على المعصية بالقلب مع الاستغفار باللسان.
الثاني: الإقلاع عن المعصية، أي الكفُّ عنها وعدم الإصرار عليها.
الثالث: أنْ يعزم بقلبه عدم العودة إليها مدة حياته.

فإذا توفّرت هذه الشروط، كانت التوبةُ مقبولةً عند الله تعالى وهي التوبةُ النَّصُوح المعنيةُ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمنُوا تُوبُوا إلى الله تَوبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أنْ يكفِّرَ عنكُمْ سيئآتِكُم ويُدخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ يَومَ لا يُخزِي الله النبيَّ والذينَ آمنُوا معَهُ نُورُهم يَسْعَى بَينَ أيدِيهِم وبأيمَانِهِم يقُولُون ربَّنَا أتمِمْ لنَا نُورَنَا واغفِرْ لنَا إنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾. أما إنْ تخلَّفَتْ هذه الشروط أو واحد منها، كانت حينئذ غير مُعْتَبَرة ولا مقبولة، وهذا إذا كان الذنب خاصاً بحق الله. أمّا إذا كان يَتعلّق به حقّ لانسان فيُضاف إلى هذه الشروط شرط آخر وهو إرضاء الخَصْم بردّ مَظْلمته. فإن تعذّر هذا الشرط، فيمكن للتائب أن يُكثر من الاستغفار لخصمه مع التصدّق عليه والدّعاء معه، فإنّ مَن فعل مثل ذلك قد تُرجى له المُسامحة والعفو كما ذكر أئمتنا رحمهم الله وإيانا، آمين والله ذو فضل عظيم.

عاشِراً: من دواء الذنوب مُطلق الإتيان بالحسنات والأعمال الصالحات لقوله تعالى: ﴿إنّ الحَسناتِ يُذهِبْنَ السّيئآت﴾، وسبب نزول هذه الآية يوضّح ذلك كما جاء في الحديث الصحيح.

وقال نبيُّنا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها». رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن أبي ذر ومعاذ بن جبل.

حادي عشر: آفاتُ الحياة وطوارؤها من بلايا وفتنٍ وأحزان وأسقام، فإنّ لذلك أثراً في تكفير الذنوب حتى الكبائر أحياناً. ففي الصحيحين عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ما يُصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَب ولا هَمّ ولا حُزْن ولا أذى ولا غَمّ حتى الشّوكة يُشاكها إلا كَفَّر الله بها من خطاياه».

النصبَ ـ بفتحتين ـ هو التعب. والوصبَ ـ بفتحتين ـ كذلك الألم اللازم والسقم الدائم، والهمّ: كل ما يَهمّ الرجل، وكذا الحزن ـ بضم الحاء وسكون الزاي وبفتحتين ـ وهما من صفات القلب.

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ما من مسلم يُصيبه أذى من مرض فما سواه إلّا حطّ الله تعالى به سيئاته كما تَحطّ الشجرةُ ورقها». رواه الشيخان. الأذى: كل ما يؤذي الإنسان ويتعبه ويؤلمه.

ويلاحظ أن هذه العلاجات فيها ما لا يمحو الكفر والنفاق، ولا يخفى ذلك على القارىء. كما أنّ هناك من الذنوب الصغائر ما يُكفر ويُغفر باجتناب الكبائر.

التحذير من المعاصي والذنوب

وبما أنّ الذنوب على اختلافها هي في نفسها أمراض تُحدث خَلَلاً في الدين وفساداً في الأخلاق، وفي ذلك فساد أيُّ فساد للمجتمع الإنساني، فقد حذّر الله تعالى من المعاصي ونهى عن كل أنواع الفواحش والآثام على الإطلاق.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ولا تَقْرَبُوا الفواحِشَ ما ظَهَر منها وما بَطَن﴾. وقال عز وجل: ﴿قُلْ إنّما حَرّم رَبي الفَواحِشَ ما ظهر منها وما بَطَن والإثم والبغيَ بغير الحق﴾. الفواحش: جمع فاحشة، وهي كل ماعَظُم من الذنوب، وتطلق في الغالب على الزنا. والإثم: هو الخطايا والمعاصي. والبغي: هو التعدّي على الناس.

وقال جلّ علاه: ﴿وذَرُوا ظاهرَ الإثْمِ وباطنَه﴾. الإثم الظاهر ما كان عَلانية، والباطن ما كان سِراً. وقيل الظاهر الزنا مع البغايا الظاهرات، والسرّ الزنا مع الخَليلة والخِدْنَة والصاحبة فالكل في الحرمة سواء. وقال سبحانه: ﴿ويَنْهَى عن الفَحْشَاء والمُنْكَر والبَغْي يَعِظُكُم لعلّكم تَذَكّرون﴾. والمنكر: ما أنكره الشارع.

وفي الحديث الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لا أحد أَغْيَر من الله». فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وفي المسند وسنن الترمذي عن أبي هريرة بسندٍ حَسَن أنّ النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال له: «اتّقِ المحارم تَكُنْ أعبَدَ الناس» الحديث. والآيات والأحاديث في الموضوع كثيرة.

وليس الأمر في ذلك مقصوراً على المناكر وكبار السيئات بل قد حذرنا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى من الذنوب الصِّغار التي يَحْتَقِرها الناس ولا يُبالون بها ولا يَتحرَّزون في غالب أحوالهم منها وهي سموم قتّالة فتّاكة بالقلوب.

عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إيّاكُم ومُحَقَّرات الذُنوب فإنما مَثَلُ مُحقّرات الذنوب كمثل قوم نَزَلوا بطنَ واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى حملوا ما انضَجُوا به خبزهم وإن محقرات الذنوب متى يُؤخذ بها صاحبها تهلكه». رواه أحمد والطبراني في الصغير والبيهقي والضياء وسنده صحيح، ونحوه عن ابن مسعود رواه أحمد.

مُحَقّرات الذنوب: بضم الميم وفتح الحاء المهملة مع تشديد القاف وفتحها كذلك، هي صغار الذنوب التي يحتقرها الناس ويستصغرونها. قال الغزالي رضي الله تعالى عنه: صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى تفوت أهل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة. وقوله: «متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه» معناه كما قال المناوي: أن الصغائر إذا اجتمعت ولم تكفر أهلكته.

قال الغزالي رحمه الله تعالى: تواتر[1] الصغائر عظيم التأثير في سواد القلب وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر فإنه يحدث فيه حفرة لا محالة مع لين الماء وصلابة الحجر. قال العلائي: أخذ من كلام حجة الإسلام أن مقصود الحديث الحث على عدم التهاون بالصغائر ومحاسبة النفس عليها وعدم الغفلة عنها فإن في إهمالها هلاكاً، اهـ.

الذنوب والآثام مصدر كل مصيبة وشقاء

والذنوب كلها مشؤومة وعواقبها وخيمة، ولذلك كان كل ما يصيبنا من بلاء وشقاء وما ينزل بنا من نقم وعذاب فمن جراء ما تكتسبه أيدينا، والله عزّ وجل منزه عن ظلمنا وغني عن عقابنا وتعذيبنا. قال سبحانه: ﴿ما يفعلُ الله بعذابكم إن شكرْتُم وآمنْتُم﴾.

وقد جرت سُنَّته تعالى في خلقه، كما مضى قضاؤه في كتابه، أن يعامل عباده حسب ما عملوا إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شراً فشرٌ، كما قال جلّ عُلاه: ﴿وما

---

(١) المراد بالتواتر هنا التتابع.

أصابكم من مصيبة فبما كسبَتْ أيديكم ويعفو عن كثير﴾. وقال جَلّ شأنُه: ﴿وإنْ تُصِبْهُم سيئةٌ بما قدَّمَتْ أيديهم إذا هم يَقْنَطُون﴾. وقال جلّ جلاله: ﴿ذلك بما قدَّمَتْ أيديكم وأنَّ الله ليس بظلاَّمٍ للعبيد﴾. وقال جَلَّتْ عظمتُه: ﴿فأخذَهُم الله بذنوبِهم﴾. وقال تعالى: ﴿فَكُلاًّ أخذْنا بذنبه﴾. وقال: ﴿ذلك جَزَيْناهم ببَغْيِهِم﴾. وقال: ﴿ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحر بما كسبَتْ أيدي الناس ليُذِيقَهم بعضَ الذي عَمِلوا لعلَّهم يَرْجِعُون﴾.

فكل ما حصل أو سيحصل من بلاء وحوادث وكوارث وفساد في الأرض، فمصدره ابن آدم لأنه السبب فيه بإسرافه في الإجرام. وقال عزّ وجل: ﴿ذلك بأنَّ الله لم يَكُ مغيِّراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾. وقال في آية أخرى: ﴿إنّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بَقْومٍ سوءاً فلا مَرَدَّ لهُ وما لهم من دونه من وَالٍ﴾.

فالله عزّ وجل لا يزيل ما بقوم من العافية والنعمة والرخاء والهناء، فيبدلها بالآلام والأمراض والنوازل والأحداث والفتن وضروب من أنواع العذاب، حتى يزيلوا ويغيروا ما بأنفسهم، يعنى من الحالة الجميلة، فيعصون ربهم ويجحدون نعمه عليهم، فعند ذلك تحل نقمته بهم. ولهذا قال في آية أخرى: ﴿وضربَ الله مثلاً قَرْيةً كانت آمِنةً مُطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كل مكان فكفَرَتْ بأنعمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يَصْنَعُون﴾.

فهذه الآية الكريمة كالتفسير للآيتين السابقتين، وهو مثل ضربه الله عزّ وجل في الأصل لأهل المدينة أو غيرهم بمكة أو غيرها[1]، على اختلاف أقوال المفسرين، فكانت تلك القرية ﴿آمنة﴾ ذات أمن وأمان لا يهاج أهلها ولا يُغارُ عليهم ولا يصيبهم خوف ولا جزع، ﴿مطمئنة﴾ بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها للإنتاج كما كان يحتاج إليه سائر العرب، ﴿يأتيها رزقها رغداً﴾ يعني واسعاً من كل مكان من سائر بقاع الأرض، ﴿فكفرت﴾ يعني هذه القرية، والمراد أهلها، ﴿بأنعم الله﴾ يعني نعمه، والمراد بها سائر النعم التي أنعم الله بها عليهم ومنها البعثة المحمدية، فلما قابلوها بالجحود والكفران والظلم والإفساد والإجرام،

(١) المختار أنها مكة لأن المثل ينطبق على حالتها الواقعي وقتئذ.

انتقم الله تعالى منهم كما قال: ﴿فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف﴾ فابتلاهم بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجِيَف والجلود والعظام المحرقة والميتة والصوف والوبر، وسلّط عليهم الخوف في قلوبهم، والجزع في نفوسهم، بما كان يُرسله النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من سراياه وبعوثه من وقت لآخر. وهكذا يفعل سبحانه وتعالى بكل من حَذا حَذْوَ هؤلاء المفسدين المتمردين لأنها سنة الله تعالى، فإنه ما من انحراف عن أي جانب من جوانب الإسلام إلا وتقابله عقوبته اللائقة به في الدينا.

شؤم الذنوب قد يتسرّب لغير المباشرين من سائر خلق الله تعالى

وشؤم هذه الذنوب التي يُصاب ويُعاقب من جرائها الإنسان، قد يتعدى وبالها ويتسرّب شرها لغير المباشرين لها من سائر الخلق، حتى للصالحين وأكابر أهل الله، بل قد يسري ذلك حتى إلى الحيوان الأعجم الذي لا تكليف عليه بحال. ولكن الله عزّ وجل بحلمه ورحمته ولطفه بعباده، يؤخر عنهم العقوبة ويرجىء جزاءهم على بعض ذنوبهم ليوم معلوم عنده، إنْ لم يرعووا ويرجعوا إليه.

ولعلك لا تجد أبلغ في العبرة مما يتعلق بهذا الموضوع من تأديب الله للصحابة رضي الله تعالى عنهم في وقعة أحد، ذلك المشهد الخطير. يقول الله تعالى في حقهم: ﴿أوَ لمَّا أصابَتْكُم مصيبة قد أصبتم مِثْلَيْها قُلْتُم أنَّى هذا قُلْ هو من عند أنفسكم﴾، ومعنى ذلك: أن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان قد اختار قطعة من رماة الجيش ونظّمهم وأمّر عليهم عبد الله بن جبير، وجعلهم جنوب أُحد على جبل الرماة الذي لا يزال أثره باقياً حتى يومنا هذا، وقال لهم: «قوموا على مَصَافِّكم هذا واحموا ظهورنا، فإنْ رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا، وإنْ رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا». ولكنهم لم يَفُوا بهذه الوصية الخالدة، فإنهم سرعان ما حميت الحرب واشتدت المعركة وانهزم المشركون وتبعهم المسلمون يقتلون ويغنمون، ونزل كثير من رماة الجبل المرابطين وراحوا يأخذون مع أصحابهم الغنائم، وثبت رئيسهم عبد الله بن جبير رضي الله تعالى عنه في عدد

قليل من باقي الرماة. ففطن خالد[1] بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلّة أهله، فكّر راجعاً بالجيش وتبعه عكرمة[1] بن أبي جهل، فحملوا على من بقي فقتلوهم ثم هاجموا المسلمين من ورائهم. وحينئذ انكشف المسلمين وداخلهم الرعب والدهش، وأوجع المشركون في المسلمين قتالاً ذريعاً وامتحنوا إمتحاناً عظيماً، حتى تعدى ذلك إلى النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فاصيبت رَباعيته[2] وشُجّ وجهه الشريف حتى سال الدم على وجهه الكريم.

فهذه المحنة الخطيرة ما كان سببها إلّا مخالفة الأمر النبوي الشريف في هذه الجزئية الواحدة، ومع ذلك فإن الصحابة لم يشعروا بالسبب في هذا الخذلان، فقالوا: ﴿أنّى هذا﴾، يعنون من أين جاءنا هذا الأمر، وكيف انهزمنا وأصبنا ببلايا شاقة من طرف المشركين أعداء الله وفينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم وهو المنصور المؤيد. فأجابهم الله عزّ وجل الذي لا تخفى عليه الخفايا وإن دقت، مبيناً لهم الحقيقة التي خفيت عليهم: ﴿قل هو من عند أنفسِكم﴾، يعني أن ذلك كله جاء من جهتكم حيث خالف الرماة مركزهم العسكري الذي جعلهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عليه، فَعَمّ شؤم هذه المخالفة كل المسلمين حتى القائد الأعلى لهذا الجيش العظيم العرمرم وهو النبيّ الأمين صلوات الله وسلامه عليه. وفي هذه الواقعة أكبر عبرة وأعظم درس للمسلمين: ﴿إنّ في ذلك لَذِكْرَى لمن كان له قَلْب﴾.

ومثل ما حلّ بالنبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم في هذه الوقعة، كذلك حصل بنبيّ الله موسى عليه الصلاة والسلام وأتباعه الإسرائيليين، حيث خالفوا أمره وامتنعوا من قتال الجبَّارِين إلّا قليلاً منهم، فعاقبهم الله تعالى بالتّيهان في الصحراء أربعين سنة ونبيهم موسى وأخوه هارون عليهما الصلاة والسلام بين ظهرانيهم، فأُصيبا بما أُصيب به الإسرائيليون. فهذه سنة الله ولَنْ تَجدَ لسُنّة الله تبديلاً ولا تَحْوِيلا.

---

(١) وكانا وقته لا يزالان كافرين في صفوف المشركين.

(٢) الرباعية على وزن الثمانية وهي السن التي بين الناب والثنية، وشج وجهه معناه جرح.

وفي تسرب شؤم المعصية حتى للحيوان الأعجم يقول الله جلّ علاه: ﴿ولو يُؤاخذُ الله الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة ولكن يُؤَخِّرُهم إلى أجَلٍ مُسَمًّى﴾. ويقول في آية أخرى: ﴿ولو يُؤَاخِذُ الله الناسَ بظُلْمِهم ما ترك عليها من دابّة﴾ الآية.

فلو جازى الله جلّ شأنه عباده على كل ما عملوا من ذنب وخطأ لقضى على الجميع، ولما ترك دابة تَدُبُّ على الأرض، أمّا الإنسانُ فلذنبه وظلمه وطغيانه، وأمّا سائر الدواب فلشؤم معاصي بني الإنسان. ولذلك ورد عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: (إنه كاد الجُعْلُ ليعذب في حُجْره بذنب ابن آدم)، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس﴾. وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنةً لا تُصِيبَنَّ الذين ظلموا منكم خَاصَّة﴾، وسيأتي الكلام عليها مع أحاديث في النوع الثاني إن شاء الله تعالى.

ما كان الله ليعذب قوماً حتى يبعث لهم رسولاً لإقامة الحجة عليهم

ومن سُنَّته تعالى في عباده أنه لا يعذب أحداً منهم إلّا إذا ذكَّرهم وأنذرهم، ومن أنذر فقد أعذر. فإذا نسوا ما ذُكّروا به أهلكهم حينئذ بغتة وبدون تقدم إعلام مرة ثانية، وفي هذه القطعة يقول الله جلّ علاه: ﴿وما كنا مُعذِّبين حتى نَبْعَثَ رَسولا﴾. ويقول تعالى: ﴿وما أهْلَكْنا مِنْ قَرْيةٍ إلّا لها مُنذرون ذِكْرى وما كُنّا ظَالِمين﴾. ويقول: ﴿وكَمْ أرسَلْنا من نبيّ في الأوَّلِيْن﴾. ويقول: ﴿وإنْ مِنْ أُمّةٍ إلّا خَلا فيها نذير﴾. ويقول: ﴿وما كان رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرى حتى يبعث في أمّها رسولاً يَتْلُوا عليهم آياتنا﴾، أمّها: عاصمتها، لأنّ الداعيَ لا بد وأن يكون في عاصمة القرى والمدينة العظيمة التي تضم سكاناً كثيرة وجموعاً غفيرة من سائر طبقات الناس.

ويقول جلّ ذكره: ﴿ذلكَ أن لم يَكُنْ ربُّكَ مُهلكَ القُرى بظلمٍ وأَهْلُها غافلون﴾ ، بل لا بد وأن يرسل إليهم داعياً يدعوهم إليه، ويُبَيّن لهم طريقَ الهداية وما يلزمهم في جانب الله تعالى. وفي ذلك إقامةٌ للحجة عليهم وقَطْعٌ لما عساهم أن يُدلوا به إليه من أعذارهم كما جاء في الحديث عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «لا أحدَ أَغْيَرُ من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا أحدَ أحبُّ إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه. ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل». رواه البخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

وهكذا فإذا أعرضوا عمّا أُمروا به ونسوا ما ذُكّروا به، جاءهم عذاب الله ونقمته كما قال تعالى: ﴿فلمّا نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتَحْنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ حتى إذا فَرِحوا بما أُوتوا أَخَذْناهم بغتةً فإذا هم مُبْلِسُون فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظَلَمُوا﴾، بغتة: مفاجأة من غير شعور ولا استعداد، مبلسون: آيسُون من كل خير ساكتون على يأس وحزن، ومنه إبليس سُمي بذلك لإبلاسه أي يأسه من رحمة الله تعالى. ومعنى الآية الكريمة أن الله تعالى إذا رأى من عباده انحرافاً عن دينه ونسياناً لشرعه وما أنزل إليهم، فتح وقتئذ في وجوههم أسباب الرزق والترف وأغدق عليهم النِّعَم ووَسّع عليهم في حياتهم وبسط لهم سبل المعاش، حتى إذا فرحوا بها وأطمأنوا إليها ومالوا إلى التمتع بها، أخذهم عزّ وجل مفاجأة من حيث لا يشعرون.

وهذا والله وَصْفُنا اليوم، فإننا قد نسِينا دين الله ونبذناه ظِهْرِيّاً وأعرضنا عن نور الله وهدي نبيه ورفضنا كل ذلك وراءنا، ففتح الله علينا أبواب كل شيء مما لم تصل إليه أُمّة قبلنا، واتسعت أحوالنا في المشارق والمغارب، وظهرت الكنوز الأرضية، واستخدمنا السيارات والقطارات والطائرات والبواخر العظيمة المتنوعة، واستغللنا كل ما نحتاجه من نعيم وترف، وأصبح العالم في رفاهية واسعة وحياة ناعمة وعيشة راضية فرحين مرحين لاهين، فيوشك أن يأخذنا الله تعالى بغتةً من حيث لا نشعر. ولا شك أن الحالة التي نعيش فيها الآن هي استدراج من الله لنا.

وجوب الحذر والإشفاق من نقمة الله

ولذلك كان من الواجب علينا أن لا نأمن مَكْرَ الله فإنّه لا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون. فيجب أن نكون على حذر وإشفاق من نزول العذاب بنا، وعلى الأخص في أعقاب الغفلات كما قال تعالى: ﴿أَفأَمِنَ أهلُ القُرى أنْ يأتيَهم بأسُنا بَيَاتاً وَهُمْ نائِمون أوَ أَمِنَ أهلُ القرى أن يأتِيَهم بأسُنا ضُحَىً وهُم يلعبون، أفأمنُوا مكرَ الله فلا يأمنُ مكرَ الله إلّا القوم الخاسرون﴾.

وقال تعالى: ﴿أفأَمِنُوا أن تَأتِيَهم غاشيةٌ[1] من عذاب الله أوْ تأتيَهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾.

وقال جلّ ذكره: ﴿أفأَمِن الذين مَكَرُوا السّيئات أن يخسفَ الله بِهم الأرض

---

(١) اي نقمة عامة تغشاهم.

أو يأتيَهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون أوْ يأخذَهم في تَقَلُّبِهم فما هم بمُعْجِزِين أوْ يأخذهم على تَخَوّف﴾. المكر: هو الخداع والاحتيال، والمراد به هنا فعل السيئات من كفر وتكذيب وانحراف. والتقلّب هنا المراد به في أسفارهم ومتاجرهم أو تقلبهم في أَوْطَارِهم، والتخوّف معناه هنا إما أن يكونَ المراد به أنهم متوقعون للبلايا بأن يكونوا حذرين منه، أو معناه على تنقّص من الأموال والأنفس والثمرات، فهو سبحانه وتعالى قادر على أخذهم في كل أحوالهم فيلزمهم أن لا يأمنوا عذابه في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم، فإنّ عذاب الله لا يأتي الماكرين والمفسدين والمتهتكين في الغالب إلاّ عند استراحتهم من ليل أو نهار حيث لا يكون لهم استعداد ولا تذكر.

تنويع الله لعباده أسباب الهداية بالخير والشر

والله عزّ وجل قد يُنوّع لعباده أسباب الهداية والاتعاظ، فيهلك ما حولهم من المدن والقرى ويصرّف آياته حسب حكمته، فلا ينجح ذلك فيهم كما قال تعالى: ﴿ولقد أَهْلَكْنا ما حَوْلَكم من القُرى وصَرَّفنا الآيات لعلّهم يرجعون﴾.

وقد يأخذهم بالمِحَن والشّدائد والبأساء والضراء والفتن، لعلهم يرجعون أو يتضرعون كما قال جلّ علاه: ﴿ولقد أرسَلْنا إلى أُمَمٍ مِن قَبْلك فأَخَذْناهم بالبَأساء والضرّاء لعلّهم يَتَضَرَّعون فلولا إذ جاءهم بأسُنا تَضَرَّعوا، ولكِنْ قَسَتْ قلوبُهم وزَيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾. البأساء: الشدة والفقر، والضراء: الضُر والآفات، والتضرع: معناه التذلل والابتهال.

وقال جلّ علاه: ﴿وما أرسَلْنا في قرية من نبي إلاّ أَخَذْنا أهلَها بالبأساء والضراء لعلّهم يَضَّرَعون﴾.

وقال جلّ جلاله: ﴿ولقد أخَذْنا آلَ فِرْعَونَ بالسِّنين ونَقْصٍ من الثمراتِ لعلّهم يذكرون﴾. السنين: جَمْعُ سَنَة، وقد غَلَبَت على عام القحط والجدب.

وقال عزّ وجل: ﴿فأَرْسَلْنا عليهم الطُّوفانَ والجَرادَ والقُمَّل والضَّفادع والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فاسْتَكْبَرُوا وكانوا قوماً مجرمين﴾. الطوفان في اللغة: المطر الغالب والماء الذي يغشى كل شيء والسيل المغرق.

وقال جلّ ذكره: ﴿ولقد أَخَذْناهم بالعذاب فما اسْتَكَانوا لربِّهم وما يَتَضَرَّعون﴾. وقال: ﴿وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون﴾.

فهذه عدة أنواع من عذاب الله كان يؤدب بها الأمم الغابرة ويهديهم إليه بواسطتها، ولكنهم أبَوا إلاّ الجحود والكُفران ورفض دعوة الرسل. وبعد هذا فقد يمتحنهم أحياناً بالحسنات والسيئات معاً، فلا يؤثر شيء من ذلك فيهم كما قال عزّ وجل: ﴿وبَلَوْناهُم بالحسنات والسيئات لعلّهم يرجعون﴾. الحسنات: الرخاء والخصب والعافية، والسيئات: الجَدْب والبلاء والعقوبة.

وكما قال تعالى: ﴿ثم بَدَّلْنا مكانَ السيئةِ الحسنةَ حتى عَفَوا[1] وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضَّراءُ والسرَّاءُ فأخذناهم بَغْتةً وَهُم لا يشعرون﴾، ويعنون بقولهم: ﴿قد مَسَّ آباءنا﴾ إلخ: إن إصابتنا بالضراء مرة وبالسراء أخرى هو شيءٌ طبيعي في بني الإنسان لا نستحقه لا بطاعتنا ولا بكفرنا وانحرافنا، بدليل أنّ آباءنا قَد أُصيبوا بمثل ذلك قبلنا، فهي سُنّة عادية قديمة. وهكذا قال أيضاً قوم عاد لنبيهم سيدنا هود عليه الصلاة والسلام: ﴿إنْ هذا إلاّ خُلُقُ الأوّلين وما نحن بمُعَذَّبين﴾، فهم لا بالعذاب والعقاب يتأدبون ولا بالخير والرخاء يتهذبون، فهم في كل أحوالهم كافرون ظالمون وبنعم الله يَبْطُرون.

رحمة الله لعباده ورفعه عنهم العذاب ليرجعوا وتماديهم في ضلالهم

ومع ذلك فقد يرحمهم الله تعالى نسبياً، فيرفع عنهم بعض الشدائد ليرجعوا عما هم فيه، ولكنهم كما قال تعالى: ﴿ولو رَحِمْناهم وكَشَفْنا ما بِهِمْ من ضُرٍّ لَلَجُّوا في طُغْيانِهم يَعْمَهُون﴾. لَجُّوا: أَيْ ألحوا وتمادوا، يعمهون: أي يضلون، والعمه للبَصِيرة كالعمى للبصر.

---

(١) أي كثروا.

وقال جَلّ ثناؤه في قوم سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمّا كَشَفْنا عنهم الرِّجْزَ إلى أجَلٍ هُمْ بَالِغُوه إذا هُم يَنْكُثُون﴾. ينكثون: ينقضون، ونكث أيْمانه تحلّل منها.

استدراج الله العباد وإملاؤه لهم

ومن سُنّته تعالى أنه قال قد يُمهل أقواماً ويُرجىء عذابهم إلى وقت ما، ويمدهم مع ذلك بالأموال والبنين، ويُوسِع عليهم في حياتهم، ويسهّل لهم الصعاب، ويُمهد لهم سبل المعاش. فيظن الجهال منهم بسنة الله أنهم على خير وأنهم ناجون غير معاقبين، وأنّ حالتهم تلك لا توجب لهم نقمة ولا يستحقون بها بأساً. والحقيقة أنه تعالى يستدرجهم ويُملي لهم من حيث لا يشعرون حتى يأخذهم أخْذ عزيزٍ مقتدر. وفي ذلك يقول جلّ ذكره: ﴿أيَحْسَبُون أنّما نُمِدُّهم به من مالٍ وبَنينَ نُسارِعُ لهم في الخَيْرات بل لا يَشْعُرُون﴾. يعني لا يعلمون أن ذلك منا إملاء لهم واستدراج بهم.

ويقول تعالى: ﴿وكَأيِّنْ مِن قريةٍ أمليتُ لها وهي ظالمةٌ ثُمَّ أخذتُها﴾. الإملاء: الإمهال والتأخير، فهم كما قال الله تعالى: ﴿إنّما نُملي لَهُم لِيَزْدادوا إثماً﴾.

ويقول جلّ علاه: ﴿والذين كذَّبُوا بآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حيثُ لا يَعْلمون وأُمْلي لهم، إنَّ كَيْدي مَتِين﴾. الاستدراج: هو الأخذ بالتدريج شيئاً فشيئاً ومنزلة بعد منزلة، وذلك يكون بإدرار النِّعم عليهم وإنْسائهم شكرها، فينهمكون في الغواية ويتنكبون طرق الهداية، ويظنون أنّ ما أُعطُوه جاءهم من جهة قُربهم من الله تعالى ولما لهم عنده من مكانة ومنزلة، وهكذا حتى يأخذهم بغتة، فإذا أخَذهم لم يُفْلِتهم كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «إن الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخَذه لم يفلته. ثم قرأ: ﴿وكذلك أخْذُ ربك إذا أخَذ القُرى وهي ظالمة﴾ إلخ».

وفي المُسند للإمام أحمد عن عُقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «إذا رأيتَ الله يُعطي العبد من الدنيا ـ على

معاصيه ـ ما يُحب، فإنما هو استدراج. ثم تلا: ﴿فلمّا نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتَحْنا عَليهم أبوابَ كلِ شيء﴾ الآية».

الله غني عن ظلمنا ولا يهلك قوماً صالحين ولا أمة مُصلحة

والله عزّ وجل أعلا وأجَلّ من أن يهلك قوماً صالحين أو ينتقم من أمة غير ظالمة، كما قال عزّ وجل: ﴿وما كان ربُّك لِيُهلكَ القُرى بظلم وأهْلُها مصلحون﴾، وكما قال جلّ ذكره: ﴿وما كُنّا مُهْلكي القُرى إلّا وأهلها ظالمون﴾.

فهو سبحانه منزّه عن الظلم ومبرؤ عن البغي والعدوان، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً. قال سبحانه: ﴿إنّ الله لا يَظْلِمُ الناسَ شيئاً﴾. وقال: ﴿وما ربُّك بظلّام للعَبيد﴾. وقال: ﴿وما ظَلَمْناهم ولكن كَانوا هُمُ الظالمين﴾. وقال: ﴿وما كان الله لِيَظْلِمَهم ولكن كانوا أنفسَهم يَظْلِمون﴾. وقال: ﴿إنّ الله لا يَظْلِم مِثْقال ذرة﴾.

عذاب الله خاص بالظالمين والمجرمين والمنحرفين

وقد جَرَتْ سُنة الله تعالى الجارية في هذا الكون أنْ لا يعذب إلّا الظالمين، ولا ينتقم إلّا من المجرمين والمفسدين. وفي ذلك يقول جلّ علاه: ﴿قل أرأيْتكم إن أتاكُم عذابُ الله بَغْتةً أو جَهْرة فهل يُهلَكُ إلّا القَوم الظالمون﴾. ويقول: ﴿ولا يُرَدُّ بأسُنا عن القَوْم المجرمين﴾. ويقول: ﴿فانْتَقَمْنا من الذين أجْرَمُوا﴾. ويقول: ﴿إنّا مِنَ المُجْرِمين مُنْتَقِمون﴾. ويقول: ﴿فانْتَقَمنا منهم فانْظُرْ كيف كان عاقبةُ المُكذِّبين﴾. ويقول: ﴿والذين من قَبْلِهم أهلَكْناهُم إنّهم كانوا مُجْرِمين﴾. ويقول: ﴿فلمّا آسَفُونا انتقمنا منهم﴾. آسفونا: أغضبونا.

ويقول: ﴿فلمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به أنْجَيْنا الذين يَنْهَون عن السُّوء وأخَذْنا الذين ظَلَمُوا بعذاب بئيس بما كَانُوا يَفْسُقون﴾. ويقول: ﴿إنْ نَعْفُ عن طَائفةٍ مِنْكم نعذّبْ طائفةً بأنّهم كَانُوا مجرمين﴾. ويقول: ﴿فأصبحوا لا تُرى إلّا مَسَاكِنُهم

كذلك نَجْزي القوم المُجْرِمين﴾. ويقول: ﴿فانْظُرْ كيف كان عاقِبَةُ المُفْسدين﴾.

وهكذا يَقُصّ الله سبحانه علينا سُنته في عباده المنحرفين المتمردين، فهو لا يعذب إلّا من حقّ عليه العذاب من الظالمين، ولا ينتقم إلّا ممن كفر بآياته وجحد ألوهيته، وعاكس دعاته ورسله، واستهزأ بأنبيائه وسخر منهم، أو آمَن واستسلم في الجملة ولكنه خالف أوامر الله، واسترسل مُصِرّاً على معاص الله غير مُعرّج على توبة ولا إنابة.

يقول الله تعالى: ﴿فانتقمنا منهم فأَغْرَقْنَاهم في اليَمّ[1] بأنّهم كَذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾. وقال: ﴿ولَكِنْ كَذّبوا فأخَذناهم بما كانوا يَكْسِبُون﴾. وقال: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُسُلَ فحَقّ وَعِيْد﴾. وقال: ﴿ولقد اسْتُهْزِئَ بِرُسلٍ مِنْ قَبْلك فَحَاقَ[2] بالذين سَخِرُوا مِنْهم ما كانوا به يَسْتَهْزِءون﴾. وقال: ولقد اسْتُهْزِئَ برسل من قبلك فأَمْلَيْتُ للذين كفروا ثم أَخَذْتُهم فكيف كان عِقَاب﴾. وقال: ﴿ثُمَّ كان عاقبةُ الذين أَسَاءوا السُّوأى أنْ كَذّبوا بآياتِ الله وكانوا بها يَسْتَهْزِءون﴾. وقال: ﴿وقَطَعْنا دابرَ الذين كَذّبوا بآياتِنا وما كانوا مُؤمنين﴾.

انتقام الله يستوي فيه الكافر وغيره

هذا ومن الغباوة بمكان ما يخطر ببال بعض البُسَطاء والأغبياء، من أنّ هذا العذاب والانتقام لا يكون إلّا لمن كفر بالله وجحد آياته. أما من آمن بذلك واعتقد حَقِّية ما جاءت به رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، فهو غير معرض لانتقام الله ونزول بأسه، وإن عصى الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأسرف في الذنوب.

ونقول لهذا ومن يعتقد رأيه إن المحسوس الواقعي يُكذبك ويرد دعواك، هذا من جهة. ومن جهة أخرى يَلْزَمُك قبل كل شيء، إن كنت جاهلاً، أن تراجع علماء الإسلام المهتدين ليعرِّفوك الحقيقة ويعلِّموك ما جهلت من ضروريات دينك. أما إن كنت تنتسب للعلم فقد فاتك العلم بأنّك جاهل بدين الله وشرعه، فعليك بدراسة الإسلام دراسة صحيحة لا يَشُوبها خلل ولا يدخلها تردد. وعند

(١) أي البحر.

(٢) أي نزل.

ذلك تقف على الحقيقة، وتدرك أنّ كل عاص ومنحرف مهما كان، فهو عُرضة لنقمة الله وعذابه في هذه الحياة وقبل الآخرة إن لم يَتُب، ﴿ولَعَذَابُ الآخرة أشدُّ وأبقى﴾.

ومع هذا فاسمع حقيقة ذلك في الجملة إن الذنوب التي أهلك الله بها الأمم قسمان: معاندةُ الرسل وجَحدُ رسالاتهم، والإسرافُ في الفجور والذنوب. فالقسم الأول يُهلك الله تعالى أصحابها ويعذبهم عذاب استئصال وإبادة، كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وأضْرَابهم.

أما القسم الثاني فيصابون بالمجاعات والجوائح والأمراض والاختلاف والزلازل وبعض الأنواع الأخرى الآتية، وقد يكون مع ذلك موت وقد لا يكون. وعذاب هذه الأمة من هذا القبيل. فإن الله تعالى لا يستأصلها، ولا يهلكها بالمرة كما كان يفعل مع الأجيال السابقة، ولكنّه يُعذبهم بأنواع عديدة متنوعة من البلاء، نسأل الله السلامة والعافية. وستأتي أحاديث نبوية تكشف لك عن هذا المعنى كشفاً لا يبقى معه غموض ولا إشكال.

المترفون والأغنياء ومواقفهم إزاء دعوة الرسل

ومن تتبع أخبار الماضين عبر الأجيال وفي القرآن الكريم، وجد الأغنياء والمترفين والكُبَراء هم الذين يعاكسون الدعاة إلى الله تعالى، ويقاومونهم ويؤذونهم ويضطهدونهم، وأنّ سُنة الله تعالى في هؤلاء أنهم أبعدُ الناس عن الإذعان لدعوة الرسل واتّباعهم، وأقلُّهم هداية وإيماناً وهم بالإضافة إلى ذلك سبب كل خزي، وجَلْبُ كلّ ويل ووَبَال على بني الإنسان، فهم المفسدون المخربون الأوّلون، وهم الرائدون لكل زائغ ومنحرف.

يقول الله تعالى فيهم: ﴿وما أرسَلْنا في قَريةٍ من نذير إلّا قال مُترفوها: إنا بما أُرسِلْتُم به كافرون﴾. ويقول: ﴿وكذلك ما أرسَلْنا من قبلك في قرية من نذير[1] إلّا قال مُترَفوها: إنّا وَجَدْنا آباءنا على أُمّةٍ[2] وإنّا على آثارهم مُقْتَدون﴾. ويقول: ﴿إنّهم كانوا قبل ذلك مُترفين وكانوا يُصِرُّون على الحِنْث العظيم﴾. المترفون: المُنعّمون والأغنياء الذين أبْطَرَتْهم النعمة وسعة العيش، وقيل: المراد بهم الجبارون والملوك الجائرون، ولا منافاة بين ذلك فإن الكُل واقعي.

ويقول تعالى: ﴿قال المَلأُ الذين اسْتَكبروا من قومه لَنُخْرِجَنَّك يا شُعَيْب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ إلخ. ويقول: ﴿وقال الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا: ما هذا إلّا بشر مثلكم﴾ إلخ. ويقول: ﴿قال المَلأُ من قومه: إنّا لَنَراك في ضَلال مُبين﴾، وفي آية أخرى: ﴿إنّا لَنَراك في سَفَاهَة وإنّا لَنَظُنّك من الكاذبين﴾. الملأ: هُم الوجهاء من الناس والعظماء الذين يملاءون العيون، ولا يكونون إلّا من المترفين الأغنياء. فهذه مواقفهم مع الرسل والدعاة إلى الله كما ترى.

---

(١) أي نبي.

(٢) أي على طريقة ومذهب.

أما كَونُهم من أسباب نُزول الويل والوَبال على الأمم فيقول جلّ علاه: ﴿وإذا أَرَدْنا أنْ نُهلِكَ قَرْيةً أَمَرنا مُتْرَفيها ففسقوا فيها فَحَقَّ عليها القَوْلُ فدمَّرناها تدميراً﴾.

والأمر في هذه الآية الكريمة إما أن يكون على ظاهره وحقيقته، بمعنى أمرناهم بالخير والطاعة فخالفوا وفسقوا، وإمّا أن يكون معناه أمّرناهم ـ بتشديد الميم على القراءة الأخرى ـ أي جعلناهم أمراء ورؤساء ففسقوا وخرجوا عن طاعتنا، فوجب العذاب عليهم وعلى من في قريتهم، فأهلكناهم جميعهم. فعند ذلك يصيحون كما قال تعالى: ﴿حتى إذا أخذنا مُترفيهم بالعذاب إذا هم يَجْأرون﴾ أي يصرخون، مستغيثين بربهم ملتجئين إليه، ولكنه أنّى لهم الجُؤار والصراخ وقته، لقد فاتهم ذلك وجاء وقت الشقاء الخالص.

موقف الضعفاء من دعوة الرسل

وإلى جانب هؤلاء المُتَغَطْرسين المُتكبرين، أولئك المُسْتَضْعفون المساكين والعامة والأطراف، الذين يَسارعون من أول وَهْلة وفي باديء الأمر إلى الإيمان بالله والتمسك بما جاءت به رسل الله. فهؤلاء هم أنصار الرسل في كل زمان ومكان، وهم الأسعدون بالانقياد لله تعالى ودعاته. وبهؤلاء جاءت الآيات التالية: مثل قوله تعالى حِكَايةً عن قوم نوح: ﴿قالوا: أَنُؤْمِنُ لك واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون﴾، وقوله تعالى: ﴿وما نَراك اتَّبَعك إلّا الذين هم أَراذِلُنا باديَ الرأي﴾.

وقال كُفار قريش: ﴿لو كان خيراً ما سَبَقونا إليه﴾ يعنون ضعفاء المسلمين ومساكينهم فالوجهاء والرؤساء من الكفار يعتبرون الضعفاء من المسلمين سُقَطاء أراذل لا قيمة لهم ولا اعتبار لهم.

ومن المشهور المتداول في الصِّحاح وأمهات السُّنّة المحمدية، ما جاء في حديث ابن عباس من إرسال هرقل إلى أبي سفيان وسؤاله إياه عن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم وصفاته، وأنه قال له: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فقال له: بل ضعفاؤهم، ثم قال له في الأخير: وهم أتباع الرسل. فانظره مُفصلاً في كتاب بدء الوحي من أوائل صحيح البخاري.

وجاء في صحيح مسلم وسنن النَّسائي وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت هذه الآية ـ يعني ﴿ولا تَطْرُدِ الذين يَدْعُون ربَّهم بِالغَدَاةِ والعَشِّي. . .﴾إلخ ـ بستة أنا وعبد الله بن مسعود وبلال ورجل من هُذَيْل ورَجُلَيْن لست أُسَمِّيهما، فقال المشركون للنبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: اطرد هؤلاء عنك لا يجترؤن علينا، فوقع في نفس رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه. فأنزل الله هذه الآية: ﴿ولا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ ربَّهم﴾ الآية.

فهؤلاء الذين نهاه الله تعالى عن مطاردتهم هم المستضعفون من المؤمنين، وهم المذكورون في قوله جلّ ذكره: ﴿واصْبِرْ نفسَك مع الذين يَدْعُون ربَّهم بالغداةِ والعَشِي يُريدون وجهَه﴾ إلخ، الذين أمره الله بأن يحبس نفسه معهم وأن لا يتجاوزهم إلى غيرهم ممن لا هَمَّ لهم في الآخرة.

وقصته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع ابن أُم مَكْتُوم الأعمى مشهورةٌ، تعرض لها القرآن الكريم وجاء في شأنها وبيانها حديث صحيح عن عائشة رضي الله تعالى عنها رواه الترمذي وابن حبان والحاكم ٢ / ٥١٤ وغيرهم[1].

والمقصود أن الضعفاء هم أنصار الدين ومؤيدوه، وبالتالي هم أكثر سكان الجنة. ففي حديث حارثة بن وهب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبَرّه[2]. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ جعظرى مستكبر» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(١) أما ما هو مشهور من أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسَلّم كان بعد ذلك يقول له: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، فلم أجدْ له أصلاً، وإنما ذكره جلال الدين المحلي في تفسيره مبتوراً بدون عزو ولا سند. ثم وجدت الزمخشري أورده في «كشّافه» والبغوي في «معالم التنزيل» وتبعه الخازن بدون سند ولا عزو أيضاً.
نعم ما جاء من حديث أنس: أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان بعد ذلك يُكرمه، رواه أبو يعلى من طريق عبد الرزاق كما عند ابن كثير وغيره.

(٢) وفي هذا الحديث دليل على أن لله عباداً لا يرد لهم حاجة ولا مطلباً مهما سألوه، حتى إنهم لو حلفوا على شيء يكون أو لا يكون لأبرّ قسمهم، وانجز لهم ما أرادوه سلباً =

والمضعّف: الذي يستضعفه الناس ويقهرونه لضعف حاله في الدنيا، أو معناه أنه متواضع في نفسه متذلل لله تعالى، بخلاف فريق النار فإنهم أهل كبر وفطرسة وتعاظم واختيال.

وجاء في السنة الصحيحة أن الضعفاء والفقراء سيدخلون الجنة قبل أغنياء المسلمين بخمسمائة سنة، وبهم وبدعائهم يَنصر الله الأمة ويرزقها. ففي كتاب الجهاد من صحيح البخاري من حديث سعد أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «هل تُنْصَرُون وتُرْزَقون إلاّ بضعفائكم»، ورواه النسائي بلفظ: «هل تُنصرون وتُرزقون إلاّ بضعفائكم وصلاتهم ودعائهم»، ورواه الترمذي من حديث أبي الدرداء بلفظ: «أبغوني في ضعفائكم فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»، وكذا رواه أبو داود رقم ٢٥٩٤ وابن حبان والحاكم، وانظر تهذيبي لجامع الترمذي رقم ١٥٦٠.

بل قد جعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مجرد مغاضبتهم من موجبات غضب الرب تعالى. ففي حديث عاتكة بن عمرو المزني رضي الله تعالى عنه أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله عن عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟! فأتى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبره، فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك». فأتاهم فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا يغفر الله لك يا أخي. رواه مسلم. قوله: «ما أخذت» إلخ معناه لم تستوف حقها منه.

وعلى كل فطبائع الضعفة والمساكين ليست كطبائع المترفين والمنعمين ولو كانوا مؤمنين بل بينهما فوارق.

= وإيجاباً. وهذه صفة أولياء الله تعالى الذين أكرمهم الله بطاعته والاستقامة معه، فتخلّوا عن الرذائل وتحلّوا بالفضائل، فطهروا ظواهرهم وبواطنهم من كل ما يخالف شرائع الإسلام، وزادوا على ذلك إعراضهم وتخليهم عن الحظوظ النفسانية ولو كانت من قسم المباح، مع أشياء أخرى يعزّ وجودها في عامة الصالحين من أهل الظاهر وأهمها ذكر الله مع الحضور والمراقبة له تعالى. فهؤلاء قد يكرمهم الله بخوارق تخالف العادة ويمنحهم من المواهب ما لا تسعه أكثر العقول.

لا يَعتبر ربنا مِن خلقه
إلّا الموحدِّين له

ولذلك كان الله سبحانه وتعالى لا يَهُمُّه عظيمٌ لجاهه، ولا رئيس لرياسته، ولا غني لغناه وثروته، ولا شريف لحسبه ومكانته عند قومه، ولا جميلُ المنظر لصورته وبهائه، وإنما المعتبر عنده جلّ علاه المؤمن الذي ينقاد له. قال جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ ما يَعْبأ بكُم ربي لولا دُعاؤُكم﴾ أي ما يُبالي بكم ولا لكم عنده قدر ولا قيمة لولا دعاؤكم، أي لولا وجود إيمانكم وعبادتكم.

وفي الأدب من صحيح مسلم والزهد من سنن ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم وأموالكم ولكن إنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

فالصور الحسنة التي يَسْتَحْسنها النّاس ويعجبون منها، والأموال الفائقة والأمتعة الأنيقة التي يميل إليها كل الناس ويُحبونها طَبْعاً وعادة، كل ذلك لا اعتبار به عند الله عزّ وجل ولا مبالاة ما دام الإنسان غير منقاد لله تعالى. ولذلك قال تعالى في الكفار وأمثالهم مُشيراً لهذا المعنى: ﴿وما أَمْوالُكم ولا أولادُكم بالتي تُقرِّبُكم عندنا زُلْفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ إلخ. فالأموال المُجَردة عن طاعة الله عزّ وجل والإيمان به لا عبرة بها مهما كانت، والأولاد كذلك لا ينفعون ولا يُغنون عن الإنسان شيئاً إذا كان منحرفاً، وإنما ينظر الله سبحانه إلى القلوب المملؤة بالإيمان والتقوى، وإلى الأعمال التي أمرنا بها مولانا الكريم وندبنا إليها، فأكرم الناس وأفضلهم وأشرفهم على الإطلاق هو المؤمن المتقي. قال الله تعالى: ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. وفي حديث أبي هُريرة عند البخاري: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، وفي المُسْنَد عن أبي ذر أنّ النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلّا أنْ تَفْضُله بتقوى الله»، وفي الباب أحاديث.

الاعتبار بالأمم الغابرة
والاتعاظ بأحوالهم

ومن واجب الإنسان أن يكون دائمَ الاعتبار بالأمم الخالية والأجيال الغابرة، دؤوباً على التفكر في أحوالهم والاتعاظ بما حلّ بهم من العقاب والنكال، وليذهب في بقاع الأرض وأصقاعها لينظر حالهم ويتعظ بآثارهم وبقاياهم، وقد كان فيهم من هو أظلم وأطغى وأعتى من هذه الأمة كما بقوله تعالى: ﴿وأنّه أهلكَ عاداً الأولى * وثمودا فما أبقى * وقَوْمَ نوح من قَبلُ إنهم كانوا هم أظلمَ وأطغى * والمُؤتَفِكَة أهوى * فغشّاها ما غشّى﴾.

هلاك الأمم والأجيال
في القرآن الكريم

وقد أهلك الله عزّ وجل أمماً وأقواماً وقروناً وأجيالاً، كانوا أشدّ منّا قوة وأطول أعماراً وأرغد عيشاً وأكثر أموالاً، فاستأصلهم وأبادهم ولم يَبْقَ لهم ذكرٌ ولا أثر، وتركوا وراءهم قُصوراً مُشيّدة وآباراً مُعَطَّلة وأراضي خالية وزروعاً مثمرة ونعمةً كانوا فيها فاكهين، وأورث كل ذلك قوماً آخرين، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين.

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كم أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهم مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُم في الأرض ما لم نُمكِّنْ لَكُم وأرسلنا السماء عليهم مِدْراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأَهْلَكْناهم بِذُنوبهم وأَنْشأنا مِنْ بَعدِهم قرناً آخرين﴾. وقال تعالى: ﴿ألم يَرَوْا كَمْ أهلكنا مِنْ قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يَرْجِعُون﴾. وقال تعالى: ﴿ولقد مكّناهم فيما إن مكّناكُم فيه وجعلنا لهم سَمْعاً وأبصاراً وأفئدة

فما أغنى عنهم سَمْعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهم من شيء إذْ كانوا يَجْحَدُون بآيات الله وحَاقَ بهم ما كانوا به يَسْتَهْزِءون﴾.

القَرْن: هو الجِيْل من النّاس الذين يعيشون في عصر واحد، فانقراضهم هو تمام القَرْن، ولذلك قال بعضهم إنه مائة سنة. ومكّنَهم في الأرض: ثبّتهم فيها وأعطاهم ما لم يُعطِ أحداً من قوة في الأبدان وبسطةً في الأجسام وسعة في الأرزاق. والمِدرار: المراد به المطر الكثير الغزير، وعبّر بإرسال السماء لأن المطَر ينزِل منها. والاسماع والأبصار والأفئدة هي طرق العلم والهداية وسبل الخير والرشاد، ومع ذلك لم ينتفعوا بها. وحاق بهم: معناه نزل بهم. والاستهزاء: السخرية.

وقال تعالى: ﴿وكَمْ من قريةٍ أهلكناها﴾. وقال: ﴿وكأيِّنْ من قرية هي أشَدُّ قوةً من قَرْيَتِك[1] التي أخرجَتْكَ أهْلكناهم فلا ناصرَ لهم﴾. وقال: ﴿وكأيِّنْ من قرية عَتَتْ عن أمْرِ ربِّها ورُسُلِه فحاسَبْناها حِساباً شديداً وعذَّبْناها عَذَاباً نُكْراً فَذَاقَتْ وبالَ أمرها﴾. وقال: ﴿وكم أهلكنا من القُرون مِنْ بَعدِ نوح﴾. وقال: ﴿وكَمْ[2] قَصَمْنا من قَرْية كانت ظالمةً وأنشأنا بَعدَها قوماً آخرين﴾. قصمه: كَسَره وأذلّه وأهانه. قال: ﴿فكأين[2] من قريةٍ أهْلَكناها وهي ظالمة فهي خَاويةٌ على عُرُوشِها وبئرٍ مُعطّلة وقَصْرٍ مَشِيد﴾. عُروشها: سقوفها. والقصر المشيد يُطلق على المبنيّ بالجص وعلى الطويل المرتفع.

وقال: ﴿أوَ لَمْ يَعْلَمْ أنَّ الله قد أهلَكَ مِن قَبْلِه مِنَ القُرُونِ مَنْ هو أشَدُّ منه قوةً وأكْثَرُ جمعاً﴾. وقال: ﴿أوَ لَمْ يَهدِ[3] لَهمَ كَم أهْلَكْنا مِنْ قَبْلهم من القُرُون يَمْشُون في مساكنهم﴾. وقال: ﴿وكَذَّب الذين من قبلهم وما بَلغوا مِعْشَار[4] ما

(١) أي مكة.

(٢) تكرر في هذه الآيات ذكر: «كم» و«كأيّن». أما كأيّن فهي موضوعة للاستكثار والخبر مثل كم الخبرية التي في هذه الآيات، ولهما صدر الكلام وفيهما إبهام يحتاجان معه إلى تمييز. ولذلك يأتي بعد كل منهما اسم مجرور يميزهما كما في الآيات أعلاه، والكلام فيهما لا يسعه هذا الموضوع.

(٣) أي يتبين.

(٤) أي عشر.

آتَيْناهم، فكَذّبوا رُسُلي فكيف كان نَكِير﴾. وقال: ﴿فأهلكنا أشَدّ منهم بَطْشاً[1] ومَضى مثلُ الأولين﴾. وقال: ﴿فأمّا عادٌ فاسْتَكْبَروا في الأرض بَغَير الحقّ وقالوا: من أشدّ منّا قوةً أوَ لَمْ يَرَوا أنّ الله الذي خَلَقَهم هو أشدُّ مِنهم قوةً وكانوا بآياتِنا يَجْحَدُون، فأرسلنا عليهم رِيحاً صَرْصَراً في أيّام نَحِسَات﴾. وقال: ﴿أوَ لَمْ يَسِيروا في الأرض فَيَنْظُروا كيف كانَ عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلِهم كانوا أشدَّ مِنْهم قُوّةً وأثاروا الأرض[2] وعَمَروها أكثرَ مما عمروها﴾ الآية. وقال في آية أخرى: ﴿كانوا هم أشَدَّ مِنهم قوةً وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم﴾. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تَقُصّ علينا نبأ الأقْدمِين المعذَّبين.

وفي ذلك عبرة لمن يعتبر وزجر لمن ينزجر. وما نزول أمثال هذه الأنواع من العذاب بنا ببعيد عنا لإسرافنا وفجورنا وكثرة ظلمنا وشدّة انحرافنا وخروجنا عن جَادّة أشرف الرسل صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

حالة الإنسان
عند حلول العذاب به

ومن سُنة الله تعالى في الإنسان أنه في الغالب يبقى تائهاً في أودية الضلالة منهمكاً في اتباع هواه، لا يتذكر ولا يَرعَوِي عما هو فيه حتى يسقط على أمّ رأسه ويفاجأ بنقمة الله تعالى وسوط من عنده، فعندَ ذلك يَصِير يهتف باسم الله وينادي بالإيمان به والرجوع إليه، حيث لا ينفعه إيمان ولا تقبل منه توبة، كما قال تعالى: ﴿فلمَّا رَأَوْا بأسَنا قالوا آمنا بالله وحدَه وكَفَرنا بما كُنّا به مُشْرِكين فلَمْ يكُنْ يَنْفَعُهُم إيمَانُهم لمّا رأوا بأسَنا. سُنّة الله التي قد خَلَت في عبادِه وخَسِرَ هُنالك الكافرون﴾.

وكما قال عزّ وجل عن فرعون: ﴿حتى إذا أدْرَكَه الغرقُ قال آمنْتُ أنّه لا إله

(١) أي أخذاً بعنف.

(٢) أي عمروها بالفلاحة والزراعة.

إلّا الذي آمنت به بَنُو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾، فأجابه الله تعالى منكراً عليه ورادّاً عليه قولته: ﴿آلآن وقَدْ عَصَيْتَ قَبلُ وكنتَ من المُفْسِدين﴾.

فهكذا الإنسان عند مُعاينة العذاب يُصبح معترفاً بذنبه، مُقراً على نفسه بسوء فِعاله، فيقولُ كما قال تعالى عنه: ﴿يا وَيْلَنا قَدْ كُنّا في غَفْلَةٍ من هذا بل كُنّا ظالِمين﴾. وقال تعالى: ﴿فما كان دَعْوَاهُم إذْ جاءَهُم بأسُنا إلّا أن قالوا إنّا كُنّا ظالمين﴾. وقال: ﴿ولَئِن مسَّتْهُم[1] نَفْحَةٌ[2] مِنْ عَذابِ ربِّك لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إنّا كُنا ظالمين﴾. ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حَصِيداً[3] خادمين﴾ أي ساكتين هامِدين مَيِّتين.

استبدال الله بقوم آخرين

ومن سُنة الله تعالى الكونية التي يَسلكُها مع عباده المنحرفين، أنه يُهلكهم ويُبيدهم ويستأصلُهم ثم يستبدل بهم قوماً آخرين. فإنّ هؤلاء اللاحقين قد يكونون أحسن حالاً من السابقين المعذَّبين وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكم ويَسْتَخلِفْ مِن بَعْدِكُم ما يشاءُ كَمَا أنْشَأكُم مِنْ ذُرِّيةِ قوم آخرين﴾. ويقول تعالى: ﴿إنْ يَشَأْ يُذهبْكم[4] ويأتِ بآخَرِين وكَان الله على ذلك قديراً﴾. ويقول جلّ علاه: ﴿إنْ يَشأْ يُذهبْكم ويأتِ بخَلْقٍ جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾. ويقول: ﴿وإنْ تَتولَّوا يَسْتَبْدِلْ قوماً غيرَكم ثُم لا يُكونوا أمثالكم﴾. وتقدّم قوله تعالى: ﴿وكَمْ قَصَمْنا من قرية كانت ظالمةً وأنشأْنا بعدها قوماً آخرين﴾. وقوله تعالى: ﴿كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾.

---

(١) مسَّتْهُم: أصابتهم.

(٢) نَفْحَةٌ: هبوب.

(٣) حَصِيداً: أي محصودين كحصاد الزرع فلا يبقى لهم أثر.

(٤) أي أيها الناس.

أنواع العذاب التي يُهلك الله بها الأمم

وعذاب الله تعالى وعقابه للأمم لا يختص بنوع واحد ولا لون معين، بل جرت سُنة الله تعالى في تنويعه على ألوان مختلفة ومُتنوعة. فهو قد يكون صاعقة، أو غرقاً، أو فيضاناً، أو ريحاً، أو خسفاً، أو قحطاً ومجاعة وارتفاعاً في الأسعار، أو أمراضاً، أو ظلماً وجَوْراً، أو فتناً بين الناس واختلافاً، أو مَسْخاً في الصور كما فعل ببني إسرائيل، أو في الهيئات والأشكال والقُلوب كما فعل بنا معشر هذه الأمة، أو مطراً بالحجارة، أو رجفة. فالكل عِقابٌ مِنَ الله تعالى وعَذابٌ يرسله على من شاء تأديبه أو تربيته من عباده. وقد جاءت كل هذه الأنواع في القرآن الكريم والسُنة المطهرة، فاقرأ مثلاً الآيات التالية:

فيقول عزّ وجل في الصاعقة: ﴿فأَخَذَتْهُم الصاعقةُ وَهُم يَنْظُرون﴾. ويقول: ﴿وأمّا ثمودُ فأُهلِكُوا بالطَّاغية﴾، وهي الصاعقة.

ويقول تعالى في الغرق: ﴿فأَغْرَقناهم في اليَمِّ﴾. ويقول: ﴿فأغرقناهم اجمعين﴾.

ويقول في الفيضان والطُوفان: ﴿فأخَذهم الطُّوفانُ وهم ظالمون﴾.

ويقول في الريح: ﴿وأما عادٌ فأُهْلِكُوا بِرِيْحٍ صَرْصَرٍ عَاتِية﴾ إلخ. ويقول: ﴿فأَرْسَلْنا عليهم ريحاً صَرْصَراً﴾.

ويقول في الخسف: ﴿فَخَسَفْنا به وبِدارِهِ الأرض﴾.

ويقول في القَحْط والمَجاعات والارتفاع في الأسعار وانتشار الأمراض: ﴿وبَلَوْناهُم بالحسنات والسيئات﴾. ويقول: ﴿فأخَذْنَاهم بالبأساء والضراء﴾. فالسيئات: تعُمّ كلَ ما يَسُوء الإنسان. والبَأْساء: الفقر والشدة والجوع والقحط والسُنون. والضراء: الآفات، ومنها الأمراض. وتقدم قوله تعالى: ﴿ولقد أَخَذْنا آل فِرْعون بالسنينَ ونَقْصٍ مِنَ الثَّمَرات﴾، وقوله تعالى: ﴿فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخَوف﴾.

ويقول عزّ وجل في الظُلم والجور: ﴿وما كُنّا مُهلكي القُرى إلاّ وأهلُها ظالمون﴾. وتقدم قوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مُتْرَفيها فَفَسقوا فيها فحقَّ عليها القَول فدمرناها تدميراً﴾.

ويقول في الفتن بين الناس والاختلاف والتشيع والعذاب العام: ﴿قل هو القادر على أن يَبعثَ عليكم عَذاباً من فَوْقِكم أو مِن تحت أَرْجُلِكم أو يَلْبِسَكُم شِيعاً ويُذيقَ بعضَكم بأسَ بعض﴾. العذاب من فوق: هو إرسال القنابل على الناس من الطائرات، والعذابُ من تحت: هو الالغامُ التي اعتاد الناسُ استعمالها اليوم في الحروب وأيام الفتن. ولبس الشِّيَع: هي الفِرقُ والأحزابُ وما أكثرها اليوم في عصرنا الحاضر. وقوله: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ هذه هي الفتن العامة بين الناس وقد عمّت العالم كله اليوم.

ويقول تعالى في مسخ الصور: ﴿فلمّا عَتَوا عن ما نُهُوا عنه قُلنا لهم كونوا قِرَدةً خَاسِئِين﴾. ويقول: ﴿ولقد عَلِمْتُمُ الذِينَ اعتَدَوا منكم في السَّبْت فَقُلنا لَهُم كُونوا قِرَدةً خَاسِئين﴾ أي مُبعدين مطرودين. ويقول: ﴿قل هل أُنَبِّئُكم بِشَرّ من ذلك مَثُوبَة عند الله من لَعَنه الله وغَضبَ عليه وجَعَل منهم القِرَدَةَ والخَنَازيرَ وعَبَدَ الطاغوت﴾ الآية.

وهذا المَسْخ الحاصل لبني إسرائيل كان مَسْخاً وتغييراً حقيقياً صورياً، بحيث انقلبت صورهم الآدمية إلى صور القرود. هذا هو ظاهر القرآن الكريم وصريح السنة المطهرة، ومن قال خلاف هذا من المعاصرين فهو مُنحرف زائغ ملحد[1].

---

(١) كما فعل رشيد رضا في تفسير المنار تبعاً لشيخه عبده، فإنه بعد أن ذكر عن الجُمْهور ذهابهم إلى أنّ المسخ كان حقيقياً قال: إن الآية ليست نصّاً فيه ولم يبق إلاّ النقل، ولو صح لما كان في الآية عبرة... إلخ. فإنّه ردٌّ واضح منه لظاهر القرآن المنزّل علينا بلغة العرب والذي جاءت السنة الصحيحة بتأييده. فإنّ النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نصّ على أن أمّة من بني إسرائيل قد مُسخوا كما في الصحيحين، وسيأتي ذلك في خاتمة آخر الكتاب.

أما ما جاء عن بعض السلف من تأويل الآية فلا يصح عنه، ولو صح لردته السنة الصحيحة وظاهر القرآن، فإن التأويل يحتاج إلى دليل.

أما مسخ القلوب فحصل لقارون وابن باعوراء وغيرهما من الأقدمين، وأبلغ ما جاء في ذلك قصة ابن باعوراء الذي قال تعالى فيه: ﴿واتْلُ عليهم نَبَأَ الذي آتَيْناه آياتِنا فانْسَلَخَ منها فاتَّبَعَهُ الشيطان فكان من الغَاوِين﴾ الآية. ولا شك أن هذا الشقي كان من أصحاب سيدنا موسى عليه السلام وممن أوتي حظّاً من التوراة، فمُسخ وتغير قلبه وانسلخ من آيات الله وأصبح كما قال تعالى: ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ الآية. وهذا المسخ بهذا الشكل قد حصل بكثرة في طوائف من هذه الأمة الإسلامية، وسيأتي لنا بحث خاص فيه في النوع الثاني إن شاء الله تعالى.

ويقول تعالى في المطر بالحجارة: ﴿وأَمْطَرْنا عليها حِجَارةً من سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسوَّمة عند ربك﴾.

ويقول في الرجفة: ﴿فأَخَذَتْهم الرَجْفَةُ فاصْبَحُوا في دارِهم جَاثِمِين﴾ والرجفة: هي التحرك والاضطراب. وقوله جَاثمين معناه أصبحوا مَيّتِين هامِدِين بارِكين على رُكَبهم لاصقين بالأرض. وفي القرآن الكريم مِئات الآيات في هذا المعنى فلتطلب منه، وسيأتي لنا في النوع التالي أحاديث في بعض هذه الأنواع بحول الله تعالى.

بعض أحاديث نبوية
جاءت في أسباب الهلاك

وإذ قد انتهينا من الكلام على سنن الله تعالى في عباده المنحرفين وما يتبع ذلك، فلننتقل إلى إيراد ما جاء من أحاديث نبوية شريفة جاء فيها ذكر بعض أسباب هلاك الأمم. فنقول مستعينين بالله عزّ وجل متوكلين عليه: لهلاك الأمم أسباب كثيرة جَرَت سُنة الله تعالى في عباده عند وجودها أن يُهلِكَهم بسببها من جرّائها، وأهَم هذه الأسباب وأعلاها وأفظعها، الكفر بالله والجحود لوحدانيته، ورد دعوة رسله، والاستهزاء والسخرية بآياته، وأكثر ما ذكرنا من الآيات فيما سلف يتعلق بهذا النوع الخطير. وهناك أسباب أخرى فصّلها لنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتنازل لبيانها مثل الإسراف في الذنوب، والمعاملة بالربا، والبخس في الكيل والميزان، ومنع الزكاة، وفشو الزنا، وغير ذلك مما سيأتي تفصيله.

هلاك العرب وحلول الشر بهم ولو
مع وجود الصالحين إذا كثر فيهم الخبث

عن زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دخل عليها يوماً فَزِعاً يقول: «لا إله إلاّ الله، ويلٌ للعرب من شَرّ قد اقترب فتح اليوم من رَدْم يَأْجُوج ومَأْجُوج مثل هذه» وحَلّق بإصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت زينب: فقلت: يا رسول الله أنَهْلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ». رواه البخاري ومسلم والترمذي، كلهم في الفتن.

زينب هي أم المؤمنين زوج النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وبنت عمته أميمة بنتُ عبد المطلب، تزوجها صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سنة ثلاث أو خمس وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة، وهي التي نزل فيها قوله عزّ وجل: ﴿فلمّا قَضَى زَيْدٌ منها وَطَراً زَوَّجْنَاكها﴾ الآية. وكانت أول من مات من نساء النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، توفيت سنة عشرين وصلّى عليها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

وقولها: دخل عليها فزعاً، الفزع: في الأصل الخوف ثم وضع موضع الإغاثة والنصر، كذا في النهاية، والمراد به هنا الخوف. وقولها: يقول: «لا إله إلاّ الله»، إنّما وحَّدَ الله تعالى اقراراً منه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنه المتفرد بالتصرف في كونه، وأنّ الكل تحت قَهْرِه وحُكمه، يفعل فيهم ما يشاء ويأتيهم بما يريد، فلا رادّ لقضائه ولا دافع لحُكمه. وقد يكون قال ذلك تَعَجباً مما سينزل بأمته بعده. وقوله: «ويل للعرب»، الويلُ في الأصل الخزي والهلاك والمشقة والعذاب، وفسّره جماعة من المفسرين بواد في جهنم. ولذلك كان كل من وقع في هَلَكَة أو نزلت به داهية نادى يا ويل، كما جاء عن إبليس من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إذا قَرَأ ابنُ آدم السَّجْدَة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويلي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمِرْت بالسجود فأبيت فلي النار»[1]. فقوله: «يا ويلي»، معناه يا هلاكي ويا خزيي، ولا أهلَك في خلق الله من الشيطان.

وهو في الحديث الشريف دعاء منه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم دعاء ترحم، وإنّما خَصّ العرب بالذكر لأنهم كانوا وقته معظم من أسلم أو لأنهم أول من دخل في الإسلام، وللإنذار بأنّ الفِتن إذا وقعت كان الهلاك أسرع إليهم من غيرهم.

والمُراد بالشرّ المُشار إليه ما حصل بعده بقليل من قتل سيدنا عثمان رضي

---

(١) احتج الحنفية بظاهر قوله: أُمر ابن آدم إلخ. على وجوب سجود التلاوة، وهو غلط منهم لأنه يكون ذلك كذلك مع تسليم ما ورد في مثل هذا لو لم تأت قرينة، كيف وقد سجد النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وترك كما جاء ذلك مُصرحاً به في الحديث الصحيح.

الله تعالى عنه، وما وقع بعد موته من الحروب الطاحنة بين سيدنا علي وساداتنا طلحة والزبير رضي الله تعالى عنهم، ثم بين سيدنا علي وبين معاوية. ثم تتابعت الشرور والفتن جيلاً بعد جيل حتى جاء عصرنا الحاضر، فأصبحت الفتن فيه بمنزلة الأمطار تِباعاً وكثرةً، كما جاء في الصحيحين من كتاب الفتن عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في حديث: «هل تَرَون ما أرى؟» قالوا: لا، قال: «فإنّي لأرَى الفِتَن تَقَعُ خِلال بُيُوتكم كوقع المطر».

ولا يَبْعُد أن يكون قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ويل للعرب...» إشارة منه إلى ما نزل بالعرب[1] ومن شاركهم من المسلمين في وقتنا من استيلاء الكفار على بلادهم، واستعمارها واستعباد أهلها طَوْعاً وكَرْهاً، وعلى الأخص ما وقع بالقدس الشريف وما حوله من البلاد المقدسة، حتى صارت البلاد الإسلامية - ولا سيما العرب منهم - بين الأمم الكافرة كالقَصْعَة بين الأكَلَة، كما جاء في حديث ثوبان مرفوعاً: «يُوشِك أنْ تَدَاعَى عليكم الأُمَمُ كما تَداعى الأَكَلَةُ على قَصْعَتِها» قالوا: أمِنْ قِلَّةٍ بنا يومئذ؟ قال: «بل أنتم كثير، ولكنّكم غُثاءٌ كَغُثَاء السَّيْل». الحديث رواه أبو داود وغيره.

غُثاء السيل: هو ما يخالط زَبَد السَّيل من ورق بالٍ ويعلو وجه الماء، ثم يُقذف حوالي السيول والسواحل ولا يُنتفع به إلّا للحريق. فهذه صفة عامة المسلمين اليوم، فهم مع كثرتهم ليس لهم من الإيمان الصحيح والدين المَتين ما يُؤهلهم للانتصار الكامل على عدوّهم الصهيوني والصليبي والشيوعي.

وقوله: «فتح اليوم من ردم» إلخ. الرَّدْمُ: هو السدّ الذي بَنَاهُ سيدنا ذو القَرْنَيْن على يأجوج ومأجوج كما ذكره الله تعالى في سورة الكهف حيث قال: ﴿قالوا: يا ذا القرنين إن يأجوجَ ومأجوجَ مُفْسِدون في الأرض فَهَل نَجْعل لك خَرْجاً على أنْ تَجعلَ بيننا وبينهم سدًّا؟ * قال: ما مكّنّي فيه رَبّي خيرٌ فأعينوني بقوةٍ

(1) وقد جاء النص الصريح في أنّ أول الهالكين قريش، فعن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أوّل الناس هَلاكاً قريش وأول قريش هلاكاً أهل بيتي». رواه الطبراني في الكبير بسند صحيح.

أجعلْ بَيْنكم وبَيْنَهم رَدْماً﴾ الآية. ويأجوج ومأجوج مِنْ ذُرِّيَة يافث بن نوح عليه السلام، فهم من نَسْل آدم خِلافاً لمن قال غير هذا، ولا يعرف موقعهم على التحقيق حتى يومنا هذا، على الرغم مما وُجِدَ وكُثُر من الاكتشافات الآن على آثار الأمم السابقة. وقول بعض المعاصرين إنهم التتار هو قول باطل لا أساس له من الصحة. وكذا قول البعض الآخر إنهم الصينيون هو قول تَأْبَاه نصوصُ الشَّرْع ولا يُساعده القرآن وظواهر الأحاديث النبوية. فالله تعالى يَقُول: ﴿فإذا جاء وَعْدُ رَبِّي﴾ أي أجَلُه في أنْ يخرجوا منه، ﴿جعله دَكّاءَ﴾ أي مُسْتَوياً بالأرض مُلْصَقاً بها، وهذا لم يقع أبداً. بل خروجهم من أشراط الساعة الكبرى التي ستكون قبيل انقراض أيام الدنيا، وذلك في زمان سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، كما جاء في كتاب الفتن من صحيح مسلم في حديث النَّواس بن سمعان الطويل قال: ذَكر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الدجّال ذاتَ غَداةٍ، فذَكَر الدجّال وصِفَته ثم قال: «بينما هو كذلك إذْ بعث الله المسيحَ ابن مريمَ فنَزَل عند المَنارةِ البيضاء شرقيَّ دمشق»، فذكر بعضَ أوصافه وقَتْلَه للدجال ثم قال: «بينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عباداً لي لا يَدانِ لأحَد بقتالهم فحرِّز عبادي إلى الطُّور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بُحيرة طَبَرية فيشربون ما فيها...» الحديث.

فالحديث كما ترى نصّ في أن خروجَهم سيكونُ أيامَ سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام. وجاء حديثُ آخر يكشف عن معنى الآية ويُبيِّنُ عملية يأجوج ومأجوج مع السد والرّدم، وذلك ما حدثنا به أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في السد قال: «يَحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يَخْرِقُونه قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غداً. قال: فيعيده الله كأمثل ما كان حتى إذا بلغ مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله تعالى، واستثنى. قال: فيرجعون فيجدونه كهيأته حيث تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس».

الحديث بطوله رواه أحمد ٢/ ٥١٠، والترمذي في التفسير ٤/ ١٤٣ مع «تحفة الأحوذي»، وابن ماجه رقم ٤٠٨٠، والحاكم ٤/ ٤٨٨ في الفتنة، كلهم

من طريق قَتادة[1] حدثنا أبو رافع عن أبي هريرة، وسنده عند الترمذي والحاكم ٤/ ٤٨٧ على شرط البخاري ومسلم، وكذلك صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وقال الحافظ البوصيري في «زوائد ابن ماجه»: إسناده صحيح رجاله ثقات.

وأَورده الحافظ ابن كثير في تفسيره من طريق أحمد والترمذي وابن ماجه وقال: إسناده جيد قوي، ثم ذكر أنّ مَتْنَه في رفعه نَكَارة، وأن ظاهر الآية يقتضي أنّهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه...، ثم ذكر احتمال كون أبي هريرة أخذه عن كعب الأحبار إلخ. وهذا الذي قاله غير صواب، فإن الحديث غيرُ مخالف لظاهر القرآن بل هو مؤيد له، والسُنة الصحيحة لا تُرَدّ بالاحتمالات البعيدة: فالله تعالى أخبر بأنّهم لم يَعْلُوه ولم يستطيعوا نقبه حتى يخرجوا على الناس، لكنه إذا جاء وعد الله تعالى بوقت خروجهم جعله الله تعالى مدكوكاً وذلك بواسطتهم، فيخربونه ثم يخرجون، وهذا هو الذي أخبر به الحديث الشريف. فأي مُعارضة في ذلك وأي نَكارة فيه.

ولهذا الحديث شاهد أيضاً عن أبي سعيد الخدري رواه ابن ماجه رقم ٤٠٧٩ بسند صحيح رجاله رجال مسلم.

والمَنارة البيضاء المتقدمة في حديث النّعمان موجودة في عصرنا الحاضر، وهي بشرقي المسجد الأموي كما جاء في الحديث تماماً، وقد زرتها وصعدت إلى سطحها. وقد تحدث عنها أبو الفداء ابن كثير وقَبْله الإمام النَّووي وصرّحا بوجودها في عصريهما. وحديثها هذا من فضائل مدينة دمشق حرسها الله من الصهاينة وأعداء الإسلام، وقد جاء بفضلها أحاديث صحيحة وحسنة.

وقول سيدتنا زينب: «أَنُهلَك» ضُبط بكسر اللام مبنياً للفاعل، وبضم النّون مع فتح اللام مبنياً للمجهول.

والهلاك قد يكون بالكفر والابتداع، وبالفجور والفسوق، وبالقتل والسجن

(١) كذا هو عند أحمد وابن ماجه مُصرح فيه بالتحديث، وهو رد على من طعن في الحديث من ناحية عنعنة قتادة وقال إنه مدلس، فإنه لم يطلع على رواية أحمد وابن ماجه.

والضرب، والتفرق والاختلاف وتشتيت الكلمة، والمقاطعة والهجران، وظهور الجهل، ووقوع الذل والهوان، والحكم بالجور والإجبار على العمل بالقوانين الوضعية المؤذية، كما يكون بالحروب الطاحنة الساحقة التي تُفني المدن وتخرّب العمران وتنسفها نسفاً، فكل هذا يَصْدُق عليه الهلاك. وقد حصل في الأمة كل ذلك. والحديث يدل على أن وجودَ الصالحين بين الناس رحمةً لهم وأمان من نزول العذاب بهم، غير أنّ ذلك يكون كذلك ما لم يَظهرُ الفُجور، ويكثُر هتك الأعراض والقضاء على الكرامة والعفة، وانتهاك حرمات الله تعالى. ولذلك قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم للسيدة زينب عقب قولها: أنهلك وفينا الصالحون: «نعم إذا كَثُر الخبث» والخَبَث بفتح الخاء والباء فسّروه بالزِّنا وأولاد الزنا، وإنْ كان اللفظ شاملاً لكل معصية وفاحشة.

فظهور الزنا وانتشاره وكثرته ينتج عنه أولاد الزنا، وفي وجودهم فساد عظيم للمجتمع الإسلامي، بل وشقاء وعذاب على المسلمين. وذلك من أسباب الهلاك العام الذي لا ينجو منه صالح ولا طالح، كما يأتي إن شاء الله تعالى لذلك باب خاص.

هلاك الأمم بالاختلاف في كتب الله

ومن أسباب الهلاك الاختلافُ في كتاب الله والتنازعُ في مُشْكله، وعلى الأخصّ فيما يَرجع إلى القضاء والقدر والمُتَشابه من القرآن وما استأثر الله تعالى بالإحاطة بعلمه، أو ما كان مؤدياً إلى العداوة والهُجران. وفي هذا الموضوع أحاديث حضرنا منها بضعة أحاديث:

الأول: عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: هجرت إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوماً، فسمع أصوات رَجُلَين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم يُعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في هذا الكِتاب». رواه

الإمام أحمد في المسند رقم ٦٨٠١، ومسلم في أوائل كتاب العلم من صحيحه.

قوله: «هجرت» أي جِئتُ مبكراً. وقوله: «يُعرف في وجهه الغضب»، كان وجه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أزهرَ مُشرقاً يتلألأ تلألأ القمر ليلة البدر، وكأن الشمس تجري فيه، فكان إذا غضب صلوات الله وسلامه عليه تغيَّر وجهه الشريف وأحمرّ، وظهر بين عينيه عِرْقٌ قد مُلىء دماً فكان الصحابة يعرفونه بذلك.

وفي الحديث مشروعية الغضب عند انتهاك الحُرُمات ولا سيما فيما يكون سبباً لافساد ذات البين. وهكذا كان دَأْبُه صلّى الله **تعالى عليه** وآله وسلم، فكان لا يغضب لنفسه، وإنّما كان يغضب إذا انتُهكت حرمة من حرمات الله، فإذا انتُهكت لم يَقُمْ لغضبه شيء، كما قالت مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها.

وقوله: «إنما هلك من كان قبلكم» إلخ. قال النووي في شرح مسلم: المُراد بهلاك من قبلنا هنا هلاكهم في الدنيا بكفرهم وابتداعهم، فحذر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من مثل فعلهم. قال: والأمر بالقيام عند الاختلاف في القرآن[1] محمول عند العلماء على اختلافٍ لا يجوز أو اختلافٍ يُوقع فيما لا يجوز، كاختلافٍ في نَفْسِ القُرآن أو في معنى منه لا يَسُوغ فيه الاجتهاد، أو اختلاف يوقع في شك أو شبهة أو فتنة وخصومة أو شجار ونحو ذلك. وأما الاختلاف في استنباط فروع الدين منه... فليس منهياً عنه وقد أجمع المسلمون على هذا من عهد الصحابة إلى الآن.

الحديث الثاني: عن عبد الله بن عمرو أيضاً قال: خرج رسول الله صلّى الله **تعالى عليه** وآله وسلم على أصحابه وهم يختصمون في القَدَر، فكأنما يُفقأ في وجهه حب الرُمّان من الغضب، فقال: «بهذا أمرتم أو لهذا خُلِقْتُم تَضْرِبُون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم». رواه ابن ماجه في مقدمة سننه رقم ٨٥ بسند صحيح، ورواه ابن سعد في «الطبقات»، والطبراني

(١) يشير بذلك إلى حديث مسلم: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فيه فقوموا».

في «**الكبير**» بلفظ: «أما أنّه لم تهْلِك الأمم قبلكم حتى وَقَعوا في مِثْل هذا، يضربون القرآن بعضه ببعض، ما كان من حلال فاحلّوه، وما كان من حرام فحرِّموه وما كان من متشابه فآمنوا به» وسنده صحيح أيضاً.

ورواه الترمذي في «جامعه» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وهو أول حديث في كتاب القدر عنده، وسِياقُه: خرج علينا رسول الله صلّى الله **تعالى عليه** وآله وسلم ونحن نَتَنَازَعُ في القَدَر، فغضب حتى احمرّ وجهه حتى كأنما فُقِىء في وجنتيه الرمّان، فقال: «أبهذا أُمِرْتُم أم بهذا أُرْسِلْتُ إليكم إنما هلك من كان قبلكم حيث تنازعوا في هذا الأمر، عَزَمْتُ عليكم ألا تنازعوا فيه». وفي سنده صالح المرة وهو ضعيف، وله شاهدٌ آخر عن أنس بسند صحيح وآخر عن أبي سعيد الخدري بسند ضعيف ذكرتهما في تهذيب الترمذي.

وقوله: «وهم يختصمون» أي يتجادلون ويتنازعون. وقوله: «في القَدَر» ـ هو بفتح القاف والدال ـ عبارة عن كل ما كتبه الله تعالى وسبق به علمه، وتعلقت به قُدْرَته ومشيْئَتُه من خير وشر، وعَلِم أنّه سيقع في أوقات معلومة وعلى أوصافٍ مخصوصة. وقد أنكر هذا المعنى طائفة من الناس يُقال لهم القَدَرِيّة كان ابتداء ظهورهم أيام الصحابة ثم استفحل أمرهم فيما بعد كباقي الفرق والطوائف المنحرفة المبتدعة. وقوله: «يفقأ» وفي الرواية الأخرى «فقىء» معناه شُقّ أو عُصِر. وقوله: «في وَجْنَتيه» هو تَثْنِيةُ وَجْنة والمراد بهما خداه وجانبا وجهه الشريف. وقوله: «أبهذا أمرتم»؟ إلخ، هو استفهام إنكاري منه **صلى الله تعالى** عليه وآله وسلم عليهم. وقوله: «تضربون القرآن» إلخ، معناه تَخُوضون وتَنازعون فيه وتَرُدّون بعضه ببعض. والمُتشابه من الكتاب ما لا يُفهم معناه، وقيل غير ذلك. وقوله: «عزمت عليكم» إلخ، معناه أَكَّدْتُ عليكم في النَّهيْ عن ذلك ولا تعودون إلى مثله.

وفي الحديث بجميع رواياته كالذي قبله دليل على أن الاختلاف والتنازع في الدين يؤدي إلى الهلاك، وأن ذلك كان من أسباب هلاك الأقدمين، لأنه يؤدي إلى سوء العاقبة والتشكك في العقيدة، ولا سيما إذا كان مِحْوَر النزاع دائراً حول القضاء والقدر، فإن ذلك من أمر الله الذي لا يَجُوز الخَوْضُ والتعمُّقُ فيه.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «إذا ذكر القدر فأمسكوا». رواه الطبراني عن ابن مسعود.

الحديث الثالث: عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا». رواه البخاري ومسلم.

الحديث الرابع: عنه أيضاً قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لِيَلِيني منكم أولُوا الأحلام والنُّهى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، وإيّاكم وهيشات الأسواق». رواه أحمد رقم ٤٣٧٨، ومسلم، وأبو داود رقم ٦٧٥، والدرامي رقم ١٢٧١ وغيرهم.

الحديث الخامس: عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «استَوُوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»، قال أبو مسعود: فأنتم اليوم أشد اختلافاً. رواه أحمد، والطبراني رقم ٦٤٥، والحُميدي رقم ٤٥٦، ومسلم، وأبو داود رقم ٦٧٤، والدرامي ١٢٧٠، والنسائي وغيرهم.

أولوا الأحلام: هم العقلاء، وقيل البالغون. والنُّهى بضم النون العقول، وهو جمع نُهْية بضم النون، يُسمى بذلك لأنه يَنهى صاحبه عن القبائح. وهيشات الأسواق: اللغط والمنازعة فيها.

كان نبينا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كثير الاهتمام بشأن الصلاة وأحوالها حتى إنه كان لا يُكَبّر ويدخل فيها حتى يُسَوّي صفوف المصلين ويعدّلها، فكان يبالغ في ذلك كأنّما يسوي القِداح، فإذا رأى أنهم عقلوا عنه واستووا كبَّر. وفي ذلك فوائد كثيرة يدركها من يَعتني بأسرار التشريع الإسلامي. والحديثان الأخيران يُفيدانا حِكمة ظاهرة تتعلق بالوفاق والخلاف، ذلك أنّ الاتفاق في الأمور الظاهرة ـ كالاعتدال في الصلاة مثلاً وعدم الإعوجاج في الصفوف ـ يُوجب الوفاق باطناً، لما إذا اختلفت أجسام المُصلين وأعضاؤهم فيكون بعضهم متقدماً والبعض الآخر متأخراً، فإن ذلك يُوجب اختلافاً وتنافراً في الباطن، وبالتالي قد يتسرب إلى قلوبهم من الأحقاد والضغائن ما يؤدي بهم إلى

العداوة والمقاطعة. وقد جاء في هذا المعنى ما هو كالصريح في المقاطعة، فعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «لَتُسوّن صُفوفكم أو لَيُخالِفَن الله بين وجوهكم». رواه مسلم.

قال النووي: قيل معناه يَمْسَخُها ويحوّلُها عن صورتها، وقيل يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب. قال: لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن معاً.

وهذا كُلّه عذاب وعقاب وهلاك، فالاختلاف كله مذموم غير محمود. ولذلك جعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المُجادلَ المُخاصم اللَدُود أبغض الرجال إلى الله تعالى لأنه ينشر الفساد بين الناس بالاختلاف، ويوطّن أسباب العداوة فيما بينهم. فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن أبغض الرجال إلى الله الأَلَدّ الخصِم». رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

الأَلَدّ ـ بتشديد الدال المهملة ـ هو الشديد الخصومة والجدال. والخصم ـ بكسر الصاد المهملة ـ هو الذي يغلب من يخاصمه. وقوله: «إن أبغض الرجال» هذا لا مفهوم له فالنساء كذلك.

وهذا الحديث الشريف ينطبق تمام الانطباق على المحامين الذين اتخذوا الخصام مع الناس مهنة يرتزقون بها، فهم أبغض الخلق إلى الله عزّ وجل لأنهم مع كثرة خصامهم ولدّهم أكثرُ الناس هضماً لحقوق العباد، وأعظمهم كذباً، وأقهرهم لخصومهم بالباطل والتزوير. فالاختلاف الناشىء عن خصام هذا الصنف من الناس يزرع الأحقاد ويَبْذُرُ جُذورَ البغضاء في قلوب المُسلمين وغيرهم، مما لا سبيل إلى علاجه بحال وفي ذلك هلاك أي هلاك. ولذلك جعل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الجدال من أخص أوصاف الضالين.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ما ضَل قوم بَعد هُدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل»، ثم قرأ: ﴿ما ضربوه لك إلاّ

جدلاً﴾. رواه أحمد، وابن جرير، والترمذي في التفسير من جامعه، وابن ماجه في مقدمة سننه رقم ٤٨، والحاكم ٢ / ٤٤٧، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ولسوء عاقبة الجدال والمِراء نَهانا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن نمارِيَ أصدقاءنا وإخواننا المؤمنين وذلك للمحافظة على أخوّتنا والمودة التي بيننا، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لا تُمارِ أخاك ولا تُمازحه ولا تَعِدْه مَوْعِداً فَتُخلفه». رواه الترمذي في كتاب البر من «الجامع» عن ابن عباس، وفيه ليث بن أبي سليم وحاله معروف.

بل بلغ من عناية النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم واهتمامه بقطع جراثيم هذا الخُلق المَذموم أن رغّبنا في تركه ووعد على ذلك بمقامات سامية في الجنة، فعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «من ترك المِراء وهو مُبْطِل بني له بيتٌ في رَبَض الجنة، ومن تركه وهو مُحِقّ بني له في وسطها، ومن حَسُن خُلُقُه بني له في أعلاها». رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي وغيرهم، وقال الترمذي: حديث حسن. رَبَض الجنة ـ بفتح الراء والباء ـ هو ما حولها. والمراء الجدال.

كثرة السؤال والاختلاف على الأنبياء ومَنْ في معناهم

ومن أسباب الهلاك كَثْرة السؤال للأنبياء أو وَرَثتهم وخلفائهم مع الاختلاف عليهم وعدم اتباعهم.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «يا أيها الناس قد فُرِض عليكم الحجّ فَحُجوا» فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال: «لو قُلتُ نعم لَوَجَبَتْ ولما استطعتم»، ثم قال: «ذَرُوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه». رواه مسلم مطولاً، هكذا في كتاب الحج ٩/ ١٠٠ ـ ١٠١ مع شرح النووي.

إن الاختلاف على الأنبياء وحده من أسباب الفتنة والهلاك، قال الله عزّ وجل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الذين يُخالِفون عن أَمْرِه أَنْ تُصِيبَهم فِتْنةٌ أو يُصيبَهم عذابٌ أليم﴾.

الحذر: الخوف والتيقظ والتأهب، ومعناه هنا الخوف أي فليخف الذين يعرضون عن أمر رسولنا خشية أن يَنْزِل بهم بلاء في الدنيا وهي الفتنة أو يَحِلّ بهم عقاب أليم في الآخرة وهو عذاب جهنم. فهذا في مجرد الاختلاف عليهم فكيف إذا انضم إلى ذلك تحريجهم بكثرة الأسئلة والمنازعة، فلا شك أن الأمر وقته سيكون أعظم وأفظع. فرسل الله صلواته وسلامه عليهم يجب الانقياد لهم واتباع إرشاداتهم والاستسلام لتعاليمهم وتوجيهاتهم لا مخالفتهم وعصيانهم. قال الله عزّ وجل: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا لِيُطاع بإذن الله﴾، فالرسل بعثهم الله لعباده ليطيعوهم وينقادُوا لهم لا ليحرجوهم ويؤذوهم. والقرآن الكريم والسُنة المطهرة طافحان بالأمر بطاعة رسولنا الأعظم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، والحديث الذي ذكرناه في الباب عظيم الشأن كثير الفائدة فيه قواعد هامة من قواعد الدين الإسلامي، نرجىء الكلام فيها لموضع آخر إن شاء الله تعالى.

والذي يَهُمنا منه هنا هو قوله: «فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم» إلخ. وهذه العلة كما هي في حق الأنبياء من أسباب الهلاك أصالة، كذلك تكون بالنسبة للعلماء العاملين والدعاة المخلصين. فإحراج العلماء بكثرة الأسئلة، ومخالفتهم فيما يأمرون به ويَنْهَون عنه ويدعون إليه من الدين الصحيح الحق من أسباب الهلاك بلا شك، فإن العلماء ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في حمل الرسالة والوحي الإلهي والدعوة والتبليغ، وطاعتهم واجبة بالتبعية لطاعة الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

الغُلُو في الدين

ومن أسباب الهلاك الغُلو في الدين والزيادة على ما جاء فيه تنطعاً وتشدداً، من غير أن يكون لذلك أصل يدل عليه من أنواع الدلالات الإسلامية المقررة.

فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال لي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم غداةَ العَقَبة وهو على راحلته: «هات القط لي»، فَلَقَطْتُ له حصيات هي حصى الخذف، فلمّا وضعتهن في يده قال: «بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلوّ في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين». رواه أحمد، والنسائي ٥/ ٢١٨، وابن ماجه رقم ٣٠٢٩، والحاكم ١/ ٤٥٦ كلهم في الحج، وسنده صحيح على شرط مسلم عند النسائي. أما الحاكم فقال: صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي ولفظه: «فإنما هلك من كان قبلكم بالغلوّ في الدين».

الغلو: هو مُجاوزة الحد، وغلا في الدين: تَشَدَّد وجَاوز الحدّ فيه، فالغلو هو مجاوزة الحد في كُلّ شيء. وجاء الشرع الإسلامي بذمّه في الأمور الدينية الاعتقادية والعملية ولذلك جاء عن أبي مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «هلك المُتَنَطِّعون، ثلاثاً». رواه أحمد، ومسلم في القَدَر، وأبو داود في السنة.

والتَّنَطّع هو التَّعَمّق في الشيء، ومنه التغالي في العبادات حتى تخرج عن قوانين الشريعة. وقد كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كثير الاهتمام بجانب التيسير على الأمة ورفع الحرج والضيق عنها، حتى إنه كان أحياناً يتعمد ترك بعض الأعمال والقُرُبات خوفاً من جلب المشقة على أمته باتباعه فيها صلوات الله وسلامه عليه.

وفي هذا المعنى قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «اكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يَملّ حتى تملوا». رواه البخاري. وقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن هذا الدين يُسر ولن يُشادّه أحد إلاّ غَلَبه». رواه البخاري.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إنّ هذا الدين مَتينٌ فَأَوْغِلُوا فيه برفق». رواه أحمد بسند حسن. أما ما جاء بزيادة فإنّ المُنْبَتَّ لا أرْضاً قطع ولا ظهراً أبقى، فهو ضعيف. ومعنى الحديث: إن الدين صلب شديد فسيروا فيه برفق من غير تكلف، ولا تُحمّلوا أنفسكم ما لا تُطيقونه فتعجزوا وتتركوا العمل. والإيغال ـ كما في «النهاية» ـ السير الشديد، والوُغول: الدخول في الشيء، كذا في «الفيض».

وفي المسند وغيره بسند صحيح عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «بُعثت بالحنيفية السمحة»، أي أُرسلت بالشريعة الصحيحة الحقة السهلة التي لا تفريط فيها ولا إفراط. وقد جاءت قضايا كثيرة في السنة المطهرة تَقضي بالتباعد عن الغُلو في الدين، ومنها حديث الباب. فإن رمي الحجار في الحج يجب أن يكون على قوانين ما أمر الله تعالى به وبيّنه رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من غير زيادة على المشروع[1]، فالواجب في ذلك هو رميها بحصى صغيرة مثل حصى الخذف التي تُرمى بالإصبعين السبّابة والإبهام، وقدرها نحو من حبة الفول الصغير. فإذا ما زاد إنسان عليها فرمى بحجر نحو مِلْء الكفّ مثلاً كان مُتغالياً هالكاً لأنه مخالف للنص المشروع. ومن هذا تُدرك خطأ ما يفعله كثير من جهلة حُجّاج عصرنا من رميهم الجمار بالنعال والمظلات والحجارة الكبيرة المؤذية

---

(١) وليس في المُحدثات المُستحسنة مما يخالف المشروع لأنّ أصول الشرع وقواعده تشهد لها ولا تكون من بدع الضلالة، لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «من سَنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» إلخ. رواه مسلم. وقال ابن مسعود: (ما رأى المُسلمون حَسَناً فهو عند الله حسن وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء). رواه أحمد في المسند رقم ٣٦٠٠ بسند صحيح، وهو في مجمع الزوائد ١/ ١٧٧ ـ ١٧٨.

أما قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «كُل مُحدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»، إلخ فمحمولة على البدعة التي تُخالف وتُصادم النص من الكتاب والسنة، ولا يشهد لها عموم منهما ولا دليل ولو إجمالي. هكذا قاله الشافعي وغيره من الأئمة كالعزّ بن عبد السلام والنووي في شرح مسلم والحافظ ابن حجر في «الفتح» وابن الأثير في «النهاية» وعلي القاري في شرح مشكاة المصابيح، ولا اعتبار بمن يخالف هذا ويتشدد فإنه مُجرد تزمّت وردٌ للقواعد العلمية المقررة ومخالفة لجماهير الأئمة.

للناس، فيجمعون بين الغُلو في الدين وإذاية إخوانهم المسلمين في تلك البقاع المقدسة الطاهرة. فليتق الله أولئك المُتلاعِبون وليقتصروا في رميهم على القدر الوارد، فإن المقصود من ذلك هو امتثال أمر الله تعالى والإذعان لما شرعه لعباده وإن لم نعلم حكمته.

ومِنَ الغُلو عبادةُ غير الله تعالى واعتقادُ شريك معه في ربوبيته أو ألوهيته أو تعظيمٌ وتقديس أو مدح لمخلوق فوق قدره حتى يعتقد فيه مثلاً مشاركة الله تعالى في التأثير[1] والتشريع أو العبادة. وهذا المعنى هو الذي نهى الله تعالى عنه بني إسرائيل حيث قال في أواخر سورة النساء: ﴿يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلّا الحق﴾. وقال في سورة المائدة: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غير الحق ولا تَتَّبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾.

---

(١) وليس ما يقوله الصوفية ويتداولونه فيما بينهم من التصريف بالروح والهمة من هذا القبيل، لأن التصريف الواقع بالفعل عنده ليس من تأثيراتهم في شيء بل الكل بإذن الله تعالى وقدرته وتأثيره، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. غير أنّ الله سبحانه وتعالى جعل في الروح قوى خارجة عن طور الأجساد، وجعل لها في هذا الكون إطلاقاً لا يحصرها فيه حاصر ولا يحجبها حجاب، وجعل الكون من العرش إلى الفرش كله بالنسبة إليها نقطة واحدة كما هو الشأن في الملائكة والجن، فالمَلَك يقطع ما بين هذه البسيطة وما بين العرش في طَرفة عين، والجِنّ يذهب من المغرب إلى حدود الصين في ثانية، وأعطاهما الله من القوة ما يمكنهما معها أن يدكا الجبال الشوامخ والصخور العظام دكاً.

وشأن الروح شأنٌ هائل لا يعرفه إلّا من عاينه أو من كان في حكمه، ومن ارتاب في تصرف الروح تسرب عنه ذلك إلى الارتياب فيما نطق به القرآن الكريم. فإن صاحب سليمان عليه السلام الذي علّمه الله الكتاب قد تصرّف بروحه وأتى بقصر بلقيس العظيم الهائل من اليمن إلى الشام في لمحة من البصر، بينما العفريت الجني كان في طوق روحه أن تأتي به في مدة قيام سليمان من مقامه. أليس هذا هو التصريف الروحي الذي يفعله الصوفية؟ بلى، غير أن هذه الحالة لا يصل إليها إلّا من تخلى عن الشهوات والحظوظ النفسانية وتعرى عن كثافة جسمه، فعند ذلك يصبح روحانياً له من القوة ما للملائكة والجن. وانظر كتاب الروح لابن القيم، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق لكاتبه ص ٨٠ ـ ٨١.

فنهاهم سبحانه وتعالى عن الغلو والإطراء والمدح الكاذب والقول الباطل الذي لا أصل له في الدين والكتب السماوية. والخطاب في الآيتين للإسرائيليين الذين كانوا موجودين أيام النبوة بما فيهم من اليهود والنصارى، أما اليهود فغلوهم وتشددهم وتنطعهم واضح معلوم مما قصه الله تعالى علينا في القرآن الكريم من مواقفهم ومشاهدهم المتعددة مع نبيهم سيدنا موسى عليه السلام كقولهم: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾، وقولهم في البقرة: ﴿ادع لنا ربك يُبَيّن لنا ما هي﴾، ﴿قالوا ادع لنا ربك يُبَيّن لنا ما لونها... إن البقر تشابه علينا﴾، فشدّدوا فشدد الله عليهم، وكذا قولهم: ﴿أرنا الله جهرة﴾ إلخ. ولا يخفى ما قالوه في سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ووالدته السيدة مريم القَانِتة حيث وَسَمُوها بالباغية وولدها عيسى بابن بغي وزنى، وأيّ غلوّ أخبث من هذا، فهذا مجاوزة الحَدّ في الطَّعن والهضم من حقوق أعلام بني الإنسان.

هذه نبذة يسيرة من غلو اليهود، أما النصارى فالغلو فيهم أظهر وعليهم أغلب، وكيف لا وقد عمدوا إلى عبد من عباد الله تعالى فمدحوه وأطْرَوه وغلوا فيه ورفعوه فوق المنزلة التي أنزله الله فيها، فنقلوه من حيّز النبوة إلى أن جعلوه إلهاً من دون الله أو ابناً له أو ثالث ثلاثة. ولذلك لعنهم الله عزّ وجل وطردهم من رحمته كما غضب على إخوانهم الصهاينة وسجل عليهم الخزي والذل والهوان.

بل العجب العجيب الذي صدر من الإسرائيليين ولا سيما النصارى أنهم بلغ بهم الغلو إلى حدّ أن جعلوا أتباع الأنبياء من الرهبان والأحبار والقسيسين معصومين، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أم باطلاً، صحيحاً أم كذباً. ولذلك قال الله تعالى فيهم: ﴿اتخذوا أحْبَارهم ورُهْبانَهم أرْبَاباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلّا هو سبحانه عما يشركون﴾.

وهذا الغلو قد تسرب إلى أمتنا فحذت حذوهم واتبعت طريقتهم، فتفرقت واختلفت وتشعبت وأصبح فيها من الطوائف والفِرَق من يعتقد العصمة في أئمتها وعلمائها وشيوخها بل ويعتبرونهم كمشرِّعين، فما أحلوه لهم اتبعوهم فيه وما حرّموه لهم اجتنبوه ولو خالف نصاً صريحاً صحيحاً، وهذا بلا ريب ضلال

وانحراف عن الجادة. وهذا المسلك يوجد في كثير من متعصبة أتباع المذاهب السائدة اليوم في العالم، كما يوجد ذلك في الشيعة وفي بعض فرق المتصوفة[1] الجهلة، حمانا الله مما فيه سخطه وغضبه آمين.

وخوفاً من ذلك الغلو المسيحي المذموم حذرنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم منه، وهو المُبَيِّن عن الله فقال: «لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله». رواه أحمد والبخاري من حديث سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه. والإطراء هو المبالغة في المدح والثناء حتى يخرج به عن الحد المشروع. فنهانا في هذا الحديث الشريف عن المبالغة في مدحه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حتى نخرج بذلك إلى ما فعل النصارى بسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فنتخذه معبوداً من دون الله تعالى، والله الموفق الهادي لأقوم طريق.

التنافس في الدنيا

ومن أسباب الهلاك التنافس في الدنيا والرغبة فيها والمغالبة عليها وحب الانفراد بها من التكاثر والتفاخر.

---

(١) وقد سمعت بعضهم يقول: لو أمرني شيخي بترك الصلاة لتركتها. فماذا عسى أن نقول لأمثال هؤلاء الغُمْر؟! أفلا يعلمون أنّ التصوف هو روح الإسلام ولُبّه؟! وهل الصوفية. إلاّ أناس تَخَلّوا عن الرذائل، وتحلوا بالفضائل، وبلغوا بفضل استقامتهم ومجاهداتهم إلى الذروة العليا في الكمالات البشرية، حتى يصبح أحدهم فانياً في الله غائباً فيه عن كونه وحسه، ويصير في نهاية أمره كما قال الله تعالى: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها» الحديث، رواه البخاري وغيره.

وهل الصوفي إلاّ رجل تحقق بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه وأخلص وصدق في توجيهه وسيره إلى الله، ولا يكون على هذه الطريق من لم يتمسك بحبل الشريعة ويعتصم بالعروة الوثقى ويقتف الهُدى المحمدي حسب علمه وطاقته؟! نعم قد يخالف بعض الفروع والجزئيات الاجتهادية بتأويل لا عن تعمد ولا يمنع ذلك من ولايته وصلاحه لأنه ليس بمعصوم ولا بحجة.

فعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بِجِزْيَتها، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافَوا صلاة الفجر مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلما صلّى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين رآهم ثم قال: «اظنّكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟» فقالوا: أجل يا رسول الله قال: «فأبشروا وأمّلُوا ما يَسُرّكم، فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تُبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتُهلككم كما أهلكتهم». رواه البخاري في الجزية والرقاق، ومسلم في الزهد، والترمذي كذلك، وابن ماجه في الفتن.

البحرين: بلدة عبد القيس الذين وَفدُوا على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وكان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صالحَ أهلها وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمي، وكانت هذه البلدة تتكون من قبائل عربية قديمة منذ العصر الجاهلي، ولما جاء الإسلام وجد فيها عقائد فارسية مجوسية. ومنذ العهد النبوي ودين الإسلام سائد فيها على الرغم ممّا حصل من بعض أهلها أيام الصحابة من الارتداد عن الإسلام، لكنهم لم يلبثوا أن تراجعوا بفضل الله ثم بقضاء أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه على ثورتهم، وهذه البلدة هي التي كانت أيام العباسيين مهداً لثورة القَرامِطة كما كانت قبلهم مهداً للخوارج. وقد كانت قبل هذه السنين تحت الاحتلال البريطاني، وقد كنت حاولت الدخول إليها سنة ١٣٨٥ فاتصلت بالسفارة البريطانية بِجَدّة، وبعد أن وَجّهوا إلي عدة أسئلة ومباحثات دقيقة منعوني من التأشيرة والدخول إليها ولا سيما عندما عرفوا أنني أنتسب إلى العلم. أما الآن فقد أصبحت مستقلّة هي تجاوزُ الكويت وقطر ودبي والحجاز، وهي تُعَد في جملة العراق لكن الاستعمار هو الذي فصلها كما فعلوا في سائر البلاد الإسلامية. وسكان البحرين لا تزال فيهم غِيْرة عربية إسلامية وتظاهرٌ بالعروبة والتقاليد القومية العربية، اللهم إلاّ أن يُمسخوا اليوم مع من مُسخ من العرب فتظهر عليهم التقاليد الغربية ويندمجون في التفرنج.

والتنافس: هو المسابقة إلى الشيء وكراهة أخذ غيرك إياه، قال العلماء: وهو أول درجات الحسد غير أنه إذا كان في الأمور الدنيوية كان مذموماً وإذا كان في الأمور الدينية كان محموداً ومطلوباً، قال الله تعالى: ﴿وفي ذلك فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنافِسُون﴾ أي وفي الحصول على هذا النعيم فليستبق المستبقون وليتبادر المتبادرون. قال البغوي أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس فيُريده كل واحد لنفسه ويَضِنّ به على غيره.

والحديث ظاهر في أن التنافس في الدنيا وجمع مالها وحب الاستئثار به من أسباب الهلاك لأن ذلك يؤدي إلى إضْمار الأضغان والأحقاد، وتربيةِ داء الحسد ثم العداوة ثم المُجاهرة والمدابرة، وفي ذلك هلاك للمجتمع. وقد جاء في كتاب الزهد من صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا فُتحت عليكم فارس والروم أيّ قوم أنتم؟» قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أو غير ذلك، تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون» الحديث.

فانظر أيها المُسلم إلى ماذا يصل التنافس في الدنيا بالإنسان، نعم يصل به إلى الدَّرْك الأسفل من السقوط فيقضي على كرامته ويَحْلِق دينه حلقاً كما جاء في المسند وكتاب البر من جامع الترمذي عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر» الحديث.

وفي حديث الباب دليل على أن الفقر أفضل من الغنى لأن جانب الأول مأمون بخلاف الثاني فإن صاحبه على خطر عظيم، وفي هذه المفاضلة نزاع بين العلماء. والذي أراه أن الناس يختلفون في ذلك، فمنهم من لا يصلح له إلاّ الفقر وهم أغلب الناس ولا سيما أصحاب النفوس الخبيثة، ولذلك قال تعالى: ﴿ولو بَسَط الله الرزق لعباده لَبَغَوا في الأرض ولَكِنْ ينزّل بقَدَرٍ ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾. وقال تعالى: ﴿كلاّ إنّ الإنسان لَيَطْغَى أن رآه استغنى﴾.

وهناك صنف من الناس لهم نفوس طيبة صالحة ينتفعون بالمال والغنى ويكون لهم أعظم بُلْغَة وأكبر مُعين على الدين، وفي هذا قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعمرو بن العاص: «نِعْمَ المالُ الصالح[1] للرجل الصالح». رواه أحمد في المسند بسند صحيح.

والرجل الصالح هو المؤمن الطيب التقي الذي يكتسب ماله من وجه مشروع ويصرفه في مصارفه المشروعة، فالمؤمن العاقل هو الذي يضع كل شيء فيما وُضع له ويُعطي كل ذي حق حقه، فلا يبلغ به الحال في طلب الدنيا أن يصير إلى حد يعبدها من دون الله كما هو الشأن في أكثر أهلها، فانهم عبدة الدينار والدرهم والبطون والفروج والملذات وهوى النفس، وفي هؤلاء قال نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «تَعِسَ عبد الدينار وعبد الدرهم والقطيفة» الحديث.

تعس معناه عثر وانكب لوجهه وهو دعاء عليه بالهلاك. فالذي يخضع للدنيا ويتذلل لها ولأهلها ويتخذها كمعبود لا يفكر إلاّ فيها ولا يسعى إلاّ لها ولا يقوم أو يقعد إلاّ عليها، هذا بلا شك خاسر هالك. ولذلك قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إنّ هذا الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وهما يُهلكاكم». رواه الطبراني والبيهقي، وهو حديث صحيح. فقد أهلكتنا المادة والله كما قال نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم واتخذنا المال إلهاً معبوداً من دون الله.

ومن هنا يدخل الغرور على كثير من الناس فيظنون أنهم عبدة له تعالى وهو عبدة أهوائهم، ويعتقدون أنهم موحدون وهم في أودية الشرك غارقون. فاحذر أيها المسلم أن تكون عبداً لمالك أو لزوجتك أو لنفسك، ولا تجعل الراديو أو التلفزيون صنماً لك، فإياك ثم إياك من عبادة غير الله وأنت لا تشعر. وفي الحديث دليل على أن الأكابر من الصالحين قد يحبون المال للتوسع به في مصالحهم وإن ذلك لا يقدح في مقاماتهم السامية لأنهم لا يُحبونه لذاته وإنما يحبونه لأنهم يعتبرونه كمعين وزاد للآخرة.

---

(١) أي الحلال.

الهلاك بالشّح

ومن أسباب الهلاك الشّح بالمال والضنّ به والاستبداد بكنزه ومنع حقوق الله تعالى وحقوق عباده منه، فإن ذلك من أسباب خراب الشعوب وهلاكها.

فعن جابربن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «اتقوا الظلمَ فإن الظلمَ ظُلُماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشّحَ فإن الشُحَّ أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». رواه أحمد ومسلم، والبخاري في الأدب المفرد. وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أياكم والشُحّ فإنما هَلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا». رواه أبو داود والحاكم كلاهما في الزكاة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الظلم: وضع الشيء في غير ما وضع له سواء كان بأخذ أو زيادة أو نقصان أو هضم حق أو غير ذلك. وأعظم أنواع الظُلم الشرك بالله ﴿إن الشِّركَ لَظُلْمٌ عظيم﴾، ﴿والكافرون هم الظالمون﴾. وبعد هذا تتفاوت أنواعه فأعلاه ما كان فيه حق الغير من أخذ مال أو قتل نفس أو زنى بامرأة الغير أو تطاول في عرض مسلم ونحو ذلك. ومن الظلم ظلم العبد لنفسه بالمخالفات ومن يَتَعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه.

والشُّح: قال طائفة من أهل العلم: هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حِلِّها ويمنعها حقوقها، وحقيقته أن تَتَشوّف النفس إلى ما حرّم الله ومَنَع منه، وأن لا يقنع الإنسان بما أحل الله له من مال أو فرح أو غيرهما من المطاعم والمشارب والملابس التي أباحها لنا بل يتعدى ذلك إلى ما حرم الله تعالى. فالذي يقتصر على ما أُبيح له فهو المؤمن الصالح والذي يتعدى ذلك إلى ما منع منه فهو الشحيح المذموم، والشُح وصف ساقط ينافي الإيمان.

واختلفوا في الفرق بين الشح والبخل، فقيل: البخل مطلق المنع والشح المنع مع ظلم. وقيل: الشُح بخل مع حرص أو مع منع واجب أو هو البخل بما في يد الغير والله أعلم.

وقوله: «فإن الظلم» إلخ، إنما كان ظلمات في ذلك اليوم على صاحبه لأنه يكون فاقد النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين وبأيْمانهم، فظلمه في الدنيا أكسب له في الآخرة ظلمة أو ظلمات حسب إقلاله منه أو إكثاره، والآخرة ليست إلاّ مظاهر للجزاء الدنيوي إن نوراً فنور وإن ظلمة فظلمة. وقوله: «سفكوا دماءهم» أي أسالوها وأراقوها بُخلاً بالمال وحرصاً على الاستبداد به. و«استحلوا محارمهم»: أي استباحوا نساءهم أو ما حرم الله من أموالهم. والقطيعة: هي مقاطعة الرحم وهي من المعاصي الكبار، والرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله. والفجور إما مطلق المعاصي أو هو خاص بالزنى.

والدلالة من الحديثين واضحة حيث أن هذه الحالة هي التي أهلكت من كان قبلنا حملتهم على سفك دمائهم واستحلال محارمهم ومقاطعة أرحامهم وكثرة فجورهم. وهذه سلسلة من البلايا وجراثيم الفساد فأي خير سيبقى بعد هذه الدواهي، فلا شك أن الأمة التي تتصف بهذا الخلق الساقط ـ الشح ـ سيكون عاقبتها الهلاك ومآلها الخراب، سُنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا. وما أصيب به الأقدمون من الأمم قد ابتلينا به فهلكنا كما هلكوا، فكم من دم أريق في سبيله وكم من فرج أبيح لأجله وكم من رحم هجرت من جرائه وكم من مُحرّم استبيح في الحصول عليه والاستئثار به ولا يزال الأمر يستفحل ويعظم، وهذا نبينا صلوات الله وسلامه عليه ينصحنا ويحذرنا من هذا الجرثوم الخراب ويأمرنا باتقائه والتحفظ منه ومحاربته خوفاً من أن يَقضيَ على مجتمعنا فيا للأسف على حالتنا.

ظهور الربا والزنى وتعاطي الرشوة

ومن أسباب الهلاك العظيمة التي تُخرب الديار وتُهلك الأمم وتُفسد

المجتمعات وتَقضي على الكرامة وترفع العفّة وتخلُط الأنساب وتَهضُم الحقوق وتجلب الفوضى وتنشر الظلم والجور وتخرم النظام في العالم، ظهور الربا وانتشار الزنا وتعاطي الرشوة.

فعن ابن مسعود عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ما ظهر في قوم الربا والزنا إلّا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عزّ وجل». رواه الإمام أحمد رقم ٣٨٠٩ بسند صحيح، وكذا رواه أبو يعلى وهو في «المجمع» ٤/ ١١٨ وَفاتَه عَزْوُه لأحمد.

الربا في الأصل هو الزيادة وفي عُرْف الشرع الإسلامي عبارة عن معنيَيْن: الأول البيع مع الزيادة في الجنس الواحد الربوي، وذلك كبيع مُدّ واحد من بُر جيد مثلاً بمدَّين من بُر رديء، فهذه الزيادة تُسمى ربا الفضل وهي ربا محرمة وهي تدخل في المبيعات الربوية التي جاء التنصيص عليها من الشارع والنهي عنها. وفي ذلك ورد الحديث الثابت عن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من طرق عن جماعة من الصحابة أنه قال: «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبُر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والمِلْح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعط سواء». رواه بهذا السياق مسلم عن ابن مسعود، وهناك للحديث ألفاظ أخر.

فهذه الأجناس الستة هي المتفق على دخول الربا فيها بين الأئمة رحمهم الله تعالى، ثم اختلفوا في غيرها مما يُشبهها أو كان في معناها، فألحقها الجمهور بهذه الأجناس بطريق القياس على اختلافهم في العلة في ذلك، ومنعها آخرون فقالوا: لا تُحرّم الزيادة إلّا في هذه الأجناس المنصوص عليها وهذا ما يراه الظاهرية.

وهذا الحديث يدل على أن كُلًّا من المُتعاقدَيْن سواء في ذلك. وقوله في الحديث: «يداً بيد» هو نوع آخر من أنواع الربا يقال له ربا اليد وهو البيع مع تأخير قبض المبيعين أو أحدهما، ولذلك جاء في حديث آخر في الصحيح: «فإذا اختلفت الأجناس فبيعوا كيف شئتم»، يعنى ولو مع التفاضل والزيادة إذا كان يداً بيد.

أما المعنى الثاني للربا فهو الزيادة التي يأخذها صاحب الدين في مقابلة دينه وهي ربا النسيئة. وهذا النوع هو الجاري به العمل اليوم في البنوك في سائر أنحاء العالم، وهو الذي كان معهوداً أيام الجاهلية قبل الإسلام. وفي هذا النوع نزلت تلك الآيات القرآنية وجاءت تلك القوراع الإلهية تُندد على تعاطيه بمآله ومصيره وتهدد المتعاملين به وتزجرهم. قال تعالى: ﴿الذين يأكُلُون الربا لا يَقُومُون إلّا كما يَقُوم الذي يَتَخَبَّطُه الشيطان من المَسّ ذلك بأنهم قالوا: إنّما البيعُ مثلُ الرّبا وأحل الله البيع وحرّم الربا فمن جاءه موعظةٌ من ربه فانتهى فله ما سَلَف وأمره إلى الله ومَن عادَ فأولئك أصحابُ النّار هم فيها خالدون * يَمْحَقُ الله الربا ويُرْبي الصَّدَقات والله لا يحب كلَّ كفّار أثيم﴾. وقال جلّ عُلاه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقي من الرّبا إن كنتم مؤمنين فإنْ لم تَفْعَلوا * فأْذَنُوا بحَرْب من الله ورسوله﴾ الآية. وقال عزّ وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مُضاعفة﴾.

قوله: ﴿يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي يَصْرَعُه من الجنون. وقوله: ﴿يمحق الله الربا﴾ أي يُذهب بَرَكَته ويُربي الصدقات أي يزيدها ويُثمرها. فانظر أيها المسلم إلى هذا الوعيد المُسجّل على المرابين وإلى ما سيكون مآلهم، وأمعن نظرك في قوله جلّ شأنه: ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * فإنْ لم تَفْعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾، إنها لداهية عُظمى وطامّة كُبرى وخزيٌ وذُلٌّ وهَوان وخَسارة دائمة وشقاء مستمر، إنها محاربة الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم والخلود في نار جهنم، فما أعظمها من رَزِيّة نعوذ بالله من مُوجبات سخطه.

وهذا الخلود المذكور في هذه الآية الواردة في المرابين لم يأت مثلُه في ذنب غير الإشراك بالله إلّا في قاتِل النفس العَمْد في قوله تعالى: ﴿ومن قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه﴾ الآية. وإلّا في قاتل نفسه كما جاء في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ ـ أي يضرب ـ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مُخَلّداً فيها أبداً، ومن شرب سمّاً فقتل نفسه فهو يتحساه

في نار جهنم خالداً مُخلّداً فيها أبداً، ومن تردّى ـ أي سقط ـ من جَبَل فقتل نفسه فهو يَتردى في نارِ جهنم خالـداً مُخلداً فيها أبـداً». رواه مسلم في كتاب الإيمـان من صحيحه.

فالخلود في هـذا الحـديث الشـريف وفي الآيتين الكـريمتين اختلفـوا فيـه بالنسبة للمُسلم، فقيل المراد به طول المُكث فيهـا والمُدة المتـطاولة وقـد جاءت بذلك اللغة، وقيل المراد بذلك فيمن يستحل هذه الأشياء فإنه يكون بذلك كافـراً والكـافر يُخلّد في النـار، وقيل غيـر ذلك ممـا لا يتفق وأصول الشـرع كقـول ابن عبـاس رضي الله تعالى عنهمـا بخلود القـاتل العمد، وقـول محمد عبده وتلميذه رشيـد رضا بخلود المـرابي، وقول بعضهم بخُلود قـاتل نفسـه. فإن هـذه الأقوال تُخالف قواعد الشرع وما عليه أهل السنة والجماعة من أنه لا يُخلّد أحد في النـار من أهل القبلة ممن مات على الإسلام والأدلة على ذلـك كثيرة لا داعي لإيـرادها هنا.

وعلى كل فالمُرابون على خطر عظيم إن لم يَرْعَوُوا عما هم فيه ويتوبوا إلى الله ويردوا مظالم الناس، ثم إن المَلامة في الربا ليست قاصرةٌ على مُتعاطيه فقط بل هي عامة في كل من يشارك فيه بـأي وجه كـان. فقد جـاء في السنة المـطهرة لعنُ كُل من تَدَخّل فيه أو تسبب في تكوينه أو شـارك في عمليته، فقـال صلّى الله تعـالى عليه وآلـه وسلم: «لعن الله آكل الـربا ومُـوكِلَه وشاهـدَيه وكـاتبـه هم فيـه سواء». رواه مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله، وفي البـاب أحاديث.

والمُراد بآكل الربا آخذه وإن لم يأكل، وإنما عبّر بالأكل لأنه أعظم المنافع ولأن الربا كان وقتئذ شائعاً في المَطعومات، وإلاّ فلابسه وشاربه وراكبه والمتزوج بـه والمُتصرف فيـه في جميع شؤونـه وأحوالـه سواء. ومُـوكلُه المراد بـه مُعطيـه ومُطعمه للغير. أما شُهوده وكاتبه فالأمـر فيهم واضـح. ومن هنـا تعلم أيها المسلم أن العاملين في البنوك كموظفين مَلعونون جَميـعُهم وأنهم في الرِّبا والوعيد عليه سواء، والبنوك تتعامل بالربا رسمياً وعلانية ولعل أكثر مُتعاطيه اليوم يَستحِلُونه ولا يخطر ببالهم حُرْمته.

وضرر التعامل بالـربا عـظيم جداً بـل هو من أخطر الأشياء على الشعوب والأمم ولذلك كان من أسباب العقاب ونزول العذاب بالأمم، ولا نرى مَزيـداً لما نزل بنا اليوم من أنواع العقوبات إلاّ أن تأتينا صاعقة من السماء فتحرقنا.

أما الزِّنا وانتشار ذلك الخُلق الفتاك الهَدَّام فهو أيضـاً من الأخلاق الخـطيرة على المُجتمعات ومن أسباب الخـراب والدمـار ولا أصـدقَ لهـذا المـوضـوع من هذا الحديث الشريف ومن الواقع المشاهـد المحسوس، فـإن الناس لمـا تمالئـوا على التظاهر بالزنا والإعلان به في وقت فشا فيه التعامـل بالـربا رسميـاً، عاجلهم الله بعقـاب منه وسلط عليهم وأنـزل بهم أنواعـاً من العذاب التي منهـا الـطاعـون والأمراض المختلفة والأوبئة المنتشرة التي لم تكن مضت في أسـلافهم، ولذلـك جاء في حديث سيأتي قريباً أن النبي صلى الله تعالى عليـه وآله وسلم قـال: «لم تظهر الفاحشةُ في قَوْمٍ قط حتى يُعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الـطاعون والأوجـاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا» الحديث. الفاحشة هنا الزنا، وظهورهـا اليوم بيننا وفشوّها أصبحت كالعادية وقد شارك في عملينها سائر طبقات الناس.

أمـا النساء فـلا تسأل عنهن فقلّمـا توجـد اليوم أنثى محـافظة على كـرامتها وعِـرضها، لا فـرق في ذلك بين من كـانت عـذراء أو ثيبة، ذات بعـل أم أيّمـاً. الحوادث في هذه الميادين لا يأتي عليها العدّ والحَصْر ولا نرى سبباً لهذا البـلاء الجارف وهذه المهاجمة على انتهاك حرمات الله وهذه الجرأة الوقحة على الله الا تفـريط الحكومـات الحاليـة مع تمهيـدهـا أسبـاب الفسـاد وفتحهـا الأبـواب على مصراعيها فإلى الله المشتكى.

أما الرشـوة فهي مع كـونها تنشـر الظلم والجَـور وتهضم حقوق النـاس هي أيضاً من موجبات العقاب، فعن عمـرو بن العاص قـال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «ما من قوم يظهر فيهم الربا إلاّ أُخـذوا بالسنـة، وما من قوم يظهر فيهم الرِّشا إلاّ أُخذوا بالرعب». رواه أحمد في المسنـد بسند لا بأس به.

السنة: الجدب والقحط. وقـد وقع هـذا بنا اليـوم فقد نـزع الله البركـة من

الأمطار والزروع والثمار وسلّط عليها الآفات والجوائح المتنوعة، حتى أصبحت لا يستفاد منها سدس ما كان يستفاد منها قبل تفشي الربا وانتشاره.

والرِّشا - بكسر الراء المشُددة - جمع رِشوة، والرِشوة - بالكسر - ما يُعطيه الشخص للحاكم أو غيره ليحكم له ضد خصمه بالباطل والجور أو يحمله على ما يريد. والراشي هو الذي يُعطي من يُعينه على الباطل، أما المُرتشي فهو الآخذ والرائش الواسطة الذي يسعى بينهما يستزيد لهذا ويستنقص لهذا. والرشوة بهذه الطريقة مُحرمة إجماعاً وهي من موجبات العقاب في الدنيا والآخرة ومتعاطيها ومساعده ومن يؤول إليهما كلهم ملعونون. وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿لا تأكلوا أموالَكُم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: «لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الراشي والمُرْتَشي». رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان وغيرهم، وقال الترمذي: حسن صحيح. وللحديث طرق عن جماعة من الصحابة وجاء في بعضها: «لعنة الله على الراشي والمرتشي»، وفي أخرى: «لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم الراشي والمُرتشي والرائش». رواه أحمد والطبراني والبزار.

ويلاحظ أن الرشوة المحرمة هي التي يُتوصل بها إلى إبطال حق أو تمشية باطل كما قدمنا. أما ما وقع للتوصل لحق أو دفع ظلم فليس برشوة منهية، قاله المناوي. وقال الزمخشري: وإنما يدخل الراشي في اللَعن إذا لم يندفع بماله مَضَرة، اهـ. وقال ابن الأثير: فأما ما يُعطى تَوصلاً إلى أخذ حق أو دفع ظلم فغير داخل فيه، وَرُوي أن ابن مسعود أُخذ بأرض الحبشة في شيء فأعطي دينارين حتى خُلِّي سبيله. ورُوي عن جماعة من أئمة التابعين قالوا: لا بأس أن يُصانِعَ الرجل عن نفسه وماله إذا خاف الظلم، اهـ. ومنع ما قلناه من التفصيل الشّوكاني في «النيل» وابن حزم في «المُحلى».

والرعب الوارد في المجازاة عند التظاهر بالرشوة المراد به الخوف، وذلك بأن يبتليهم الله تعالى بما يُخيفهم من عدوّ كافر ومُتجبِّر ظالم ومرض عام وأوبئة قتالة ونحو ذلك مما هو ظاهر بيننا مشاهد فينا، نسأل الله تعالى السلامة والعافية بمنه آمين.

البَخْسُ في الكَيْل والميزان ومَنْعُ الزكاة ونقضُ العهود وعدُم تنفيذ أحكام الله

ومن أسباب الهلاك العام ظهور النَّقْصِ والتَّطْفِيفِ في الكيل والميزان، ومنع حق الله وحق عباده من زكاة المال والحبوب والثمار والأنعام وغيرها، ونقض عهود الله ومواثيقه التي ألزم عباده الوفاء بها، والإعراض عن تنفيذ أحكام الله تعالى والقضاء بها بين العباد واستبدال غيرها بها.

فهذه الأشياء جاءت عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في نَسَق واحد، وذكر عقب كل خصلة منها ما توجبه من عقاب وعذاب.

فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «يا مَعْشَرَ المهاجرين، خَمْس إذا ابتليتم بهن - وأعوذ بالله أن تُدْرِكُوهُنّ - لم تظهر الفاحشةُ في قَوْمٍ قطّ حتى يُعلِنُوا بها إلّا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تَكن مضت في أسلافهم الذين مَضَوا، ولم يُنْقصوا الكَيْل والميزان إلّا أُخذوا بالسِّنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يَمنعوا زكاة أموالِهم إلّا مُنعوا القَطْر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم من غيرهم فأَخَذُوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عزّ وجل ويتحرّوا فيما أنزل الله إلّا جعل الله بأسهم بينهم». رواه ابن ماجه والحاكم وسنده صحيح.

وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «ما نقض قومٌ العهدَ إلّا كان القتلُ بينهم، ولا ظهرت فاحشةٌ في قوم إلّا سلّط الله عليهم الموت، ولا منع قوم قطّ للزكاة إلّا حبس الله عنهم القطر». رواه البزار ورجاله ثقات.

الابتلاء: الامتحان. وأعوذ بالله: معناه أَلُوذ وأتحصَّن به. والفاحشةُ: قدمنا أنها الزنا، وقد تطلق على كل ما فَحُش وعظم من الذنوب الكبار. وفَشَا معناه

ظَهر وانتشر. والسنون: أيام الجدب والقحط والجوع. وقوله: «جعل الله بأسهم بينهم» معناه جعل الفتن والعذاب والشدائد فيما بينهم.

فهذه خمس خصال كل واحدة منها توجب نوعاً أو أكثر من العذاب. فظهور الفاحشة يُوجب الأوبئة والأمراض العامة والأوجاع التي لم تكن معروفة كالكوليرا والسل والسكتة القلبية والمعي الزائدة والفتق، وبالتالي كثرة الموت وغير ذلك من المصائب التي ابتلينا بها. والبخس في الكيل والميزان يتسبب عنه الجدب والقحط وارتفاع الأسعار وظهور الغلاء في الأغذية وغيرها، وتسلّط الحكام على الناس بالجور والظلم وهضم حقوقهم. ومنع الزكاة ينشأ عنه تأخر الأمطار أو حبسها عنّا نهائياً ولولا وجود الحيوانات العجماء بيننا لما أُمطرنا. ونقض عهود الله وعهود رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم التي كلّفنا بها وأمرنا بالوفاء والالتزام بها يلزم منه جلب الأعداء إلينا وتسلطهم علينا واستعمارهم بلادنا واستعبادهم لنا ولأبنائنا واستثمارهم ما عندنا من منتوجات بلادنا وأخذهم ما لدينا من ثروة وأموال مع إفسادهم مجتمعنا ودِيننا وأخلاقنا.

أما الإعراض عن إقامة حدود الله وتطبيق القوانين الوضعية فشأنه أعظم وأعظم، وحاله أدْهى وأمرْ، وفتنته أشمَلُ وأعَمّ، ذلك أنه يوجب تشتت شمل الأمة وتفرّقها وتشيّعها، وجلب الفتن المتنوعة بيننا، وتسلّط بعضهم على بعض بجميع أنواع التسلطات من خِصام ونِزاعٍ ديني وسياسي، إلى مهاجمات ومقاتلات، إلى انتهاك الأعراض والمحرمات إلى غير ذلك.

ومن المؤسف جداً أن يكون كل ما في هذين الحديثين موجوداً فينا تماماً، ظاهراً في مجتمعنا بأجلى المظاهر. فلعل المسلمين يتفطنون لما نزل بهم فيرعووا عما هم فيه من أسباب عذابهم وذُلهم وخِزيهم ويتأدبوا ويرجعوا إلى دينهم الحق والتمسك به حتى يرفع الله تعالى عنهم عقابه وخزيه، فسلامتك يا رباه.

ظهور أولاد الزنا

ومن أسباب الهلاك ظهور أولاد الزنا وفُشُوّهم وانتشارهم، ذلك أن وجودهم يُنْبِيء بأمر عظيم ودواءٍ مهلكةٍ ستنزل بالأمة لأن أولاد الزنا نتيجةُ فساد المجتمع، وثمرة فقدان العفة والحفاظ على الكرامة، وعلامة على سقوط الأخلاق وانتشار الفوضى وذهاب الدين والغيرة والحياء والمروءة. وإذاً فالأمة إذا بلغت إلى هذه المهاوي في السقوط لا تكون مظلومة ولا لها عُذر إذا نزل بها عقاب الله.

فعن ميمونة أم المؤمنين زَوج النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قالت: «سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «لا تزال أمتي بخير ما لم يَفْشُ فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يَعمّهم الله بعذاب». رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند حسن صحيح.

يَفْشُو معناه يظهر وينتشر. وقوله: «فأوشك» أي قرب. وقوله: «أن يَعمّهم الله» إلخ، أي يشملهم، والعذاب يشمل كل نوع من أنواعه كما قدمنا. فالحروب عذاب، والاختلاف عذاب، وجور الحكام عذاب، والأمراض عذاب، والسنون المجدبة عذاب، وارتفاع الأسعار عذاب، والزلازل عذاب، والفيضانات عذاب، وشدة الريح عذاب، وأصوات الرعود والصواعق عذاب.

وكل هذه الأنواع تتخلل حياتنا ونحن عن كل ذلك غافلون ساهون معرضون. وهذا الحديث الشريف يدل دلالة واضحة على أن ظهور أولاد الزنا والبغاء من مُوجبات العذاب والهلاك، والعياذ بالله تعالى. ونحن اليوم نعيش في عصر قد انحرفت فيه كل أنظمة الحياة، لا من ناحية واحدة فحسب بل من جميع نواحيها الدينية والدنيوية الاجتماعية والفردية. وكل جيل طبعاً إذا فسد مجتمعُه وانحطت أخلاقه ظهر فيه أولاد الزنا وعمّ فيه الفجور وانتشر فيه أولاد البغاء، وهذا ما نلمسه في عصرنا الحاضر. فأولاد الزنا قد كثروا وعمّوا وأصبحوا يُعدون بالخمسين أو الستين في المائة بالنسبة لأولاد النكاح الشرعي، بل ربما كانوا في بعض الأقطار أكثر من ذلك بكثير. ولا شك أن مثل هذا يدل على انحلال عظيم من الدين وشر كبير عام في الأمة، فبالحري أن يكون من موجبات الهلاك والعذاب.

وهذا الذي ذكرناه في البلاد الإسلامية خاصة. أما غيرها من البلاد الكفرية فلا كلام لنا معهم، فإن كل ويل ووبال وخراب وفساد وانحلال، فمن عندهم

جاءنا، ولا سيّما البلاد الشيوعية كروسيا والصين ونحوها ممن لا تدين بدين. فإن شعوبها كلها أولاد الزنا، فليس فيهم زواج ولا بناء أسرة ولا تكوين عائلة، وإنما هي الإشتراكية في كل شيء، حتى في النساء يشترك جماعة في مواقعة إمرأة وما انتجت من أولاد فأبناء للدولة. وهذا الداء العضال قد تسرَّبت فكرته للديار الإسلامية، نسأل الله تعالى اللطف والسلامة آمين.

ملاحظة: قد يتساءل بعض الناس عن حال أولاد الزنا ومآلهم، وجواباً على ذلك نقول قد جاءت في شأنهم أحاديث نذكر منها ما يلي:

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ولد الزنا شر الثلاثة». رواه أحمد، وأبو داود في العَتْق من سُنَنه، والحاكم في الأحكام من المستدرك، والبيهقي، ورجاله ثقات وصححه الحاكم وأقره الذهبي. وزاد أبو داود قال أبو هريرة: لَأن أمتّع - أي أتصدق - بسوط في سبيل الله أحب إليّ من أن أعتق ولد زنية.

والمراد بالثلاثة في الحديث ولد الزنا وأبواه، وهذا قيل على إطلاقه وقيل مقيّد بما إذا عمل بعمل أبويه. لحديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «هو شر الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه» يعني ولد الزنا. رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. غير إبراهيم بن إسحاق وهو ضعيف. وله شاهد مثله عن ابن عباس رواه الطبراني في الكبير والبيهقي بسند ضعيف.

وإنما كان ولد الزنا أسوأ حالاً من والديه لفساد أصله ولأنه ربما استرسل في الشر أكثر منهما كما دلّت عليه التجارب وعُرف بالتتبع. فأولاد الزنا لا خير فيهم بل هم مشؤومون على المجتمعات لما يصدر منهم من أخلاق وما تنطوي عليه نفوسهم من شر وخبث.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لا يدخل الجنة عَاقّ ولا مُدمن خَمْر ولا مَنّان ولا ولد زنية».

رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح غير جابان، ووثقه ابن حبان وأخرج حديثه هذا في صحيحه كما في تهذيب التهذيب[1].

العاق لوالديه: الذي يؤذيهما ولا يَبَرُّهما. ومدمن الخمر: المُصرّ والمداوم على شُربه الذي لا يتوب منه. والمنّان: الذي يُعطي غيره شيئاً ما ثم يَصِيرُ يعددها عليه، مثل أن يقول: قد أحسنتُ إليكَ وأعطيتك وفعلت معك كيت وكيت ونحو ذلك، وهو محرم من الكبائر ومن موجبات النار.

ظهور المعاصي وعدم تغييرها

ومن أسباب الهلاك ظهور المعاصي بين الناس وانتشارها في المجتمع الإسلامي مع سكوت الناس عن تغييرها، ذلك أن المعصية إذا صدرت من فرد ما وأتى بها خِفية - كما هو المطلوب، ممن ابتُلِيَ بشيء من ذلك - كان ضررها قاصراً عليه ولا يَتعدّى شرها لغيره. أما إذا أصبح المُجْرمون والمُنحرفون يُعلنون بإجرامهم وَيَتَظاهرون بفسوقهم ولم يوجد من يأخذ على أيديهم ويردعهم، دبّ حينئذ وباؤها إلى العامة والخاصة ولم يبق وبالها مقصوراً على مرتكبيها وبذلك جاءت نصوص الشرع. قال الله عزّ وجل: ﴿واتَّقُوا فتنةً لا تُصِيبَنَّ الذين ظَلموا منكم خاصّة﴾. فقوله عزّ وجل: ﴿واتقوا﴾ هو خطاب للمؤمنين مُطلقاً صلحاؤهم وغيرهم. ﴿فتنة﴾: المراد بها العذاب الدنيوي كالقحط والغلاء وتسلّط الظلمة وغير ذلك. ﴿لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أي اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ولا يختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم. وإتقاء هذه الفتنة يكون بالكَفّ عن الإسراف في الذنوب والأخذ على أيدي المجاهرين بها.

---

(١) وفي الحديث كلام طويل، وقد أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» وردّ عليه الحافظ في القول المسدد، وجمع طرقه المحقق المرحوم الشيخ أحمد شاكر في حواشي المُسند فأبلغها إلى ثلاثة عشر طريقاً وحققها ودرس أسانيدها وانفصل في النهاية عن صحة الحديث وانظر رقم ٦٥٣٧ و ٦٨٩٢ منه.

وعن العرس بن عبيدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن الله لا يُعذّب العامّة بعمل الخاصة حتى تعمل الخاصة بعمل تَقْدِر العامةُ أن تغيّره ولا تغيره فذاك حين يأذن الله تعالى في هلاك العامة والخاصة». رواه الطبراني ورجاله ثقات.

وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمّهم الله بعذاب من عنده»، فقلت: يا رسول الله أمَا فيهم صالحون؟ قال: «بلى»، قلت: فكيف يَصنع بأولئك؟ قال: «يُصِيبُهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان». رواه أحمد بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح. ظهرت المعاصي: فشت وانتشرت. وقوله: «عمهم الله» أي أصابَ جميعَهم وشمل العذاب خاصهم وعامهم.

فالسكوت عن المعاصي مع فُشُوّها والإعلان بها من موجبات العقاب والهلاك، لأن السكوت عليها يُغري أصحابها على التمادي فيها واستفحال أمرها وانتشارها بكثرة. وذلك قد يُعدي إلى كل طبقات المجتمع الإسلامي، فيصبح الناس كلهم مُنحلين من الأخلاق الكريمة والآداب السامية الإسلامية، وحينئذ لا يبقى لوجود الصالحين بين الناس كبير فائدةٍ لغلبة الشرّ على الخير، بل يصبح الأخيار والأشرار وقته سواء، غير أن الصالحين ينقلبون إلى مغفرة من الله ورضوان حسب صدقهم وإخلاصهم، وقد يكون ما أصيبوا به من عقاب وعذاب تطهيراً وتمحيصاً لهم أو رفعاً لدرجاتهم.

وهذا الجانب العظيم هو مع كون إهماله من أسباب العقاب، هو علاوةً على ذلك من موجبات عدم استجابة الدعاء وهو أيضاً عقاب آخر.

فعن حُذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «والذي نفسي بيده لتأمُرنّ بالمعروف وَلَتَنْهَوُنّ عن المُنكر أو لَيُوشِكَنَّ الله أنْ يبعث عليكم عذاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وسنده صحيح عند الترمذي على شرط البخاري ومسلم.

فالأخذ على أيدي المُجرمين والمتهتكين والظالمين والمُفسدين والإنكار عليهم من أسباب النجاة والصلاح وانتشار الفضيلة والأخلاق الكريمة، وإهمال ذلك والإعراض عنه يُوجب العذاب ويَسُدّ في وجوه المسلمين عدم استجابة دَعَواتهم وهذا من أكبر المصائب. فكم من سائل يدعو للمسلمين، وكم من مُبتهل يتوجه لله في صلاح الأمة، وكم من مُتضرع خاشع يستغيث بالله في رفع النكبات ودفع البلاء عن إخوانه الموحدين، ولم توجد بعد أي علامة للإستجابة وما ذلك إلاّ لما ذكرناه في الحديث الشريف. نعم، قد يستجيب الله دعاء المرء لنفسه كما جاء في حديث: «ادع لنفسك أَسْتَجِبْ لك، أما العامة فإنّي عليهم لساخط».

وقد ضرب لنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مَثَلاً للقائمين في حُدود الله والواقعين فيها بما فيه عبرة وذكرى لنا: فعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «مثل القائم في حُدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استَهَمُوا على سفينة، فصار بعضُهم أعلاها وبعضهم أسفلها. فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤْذِ مَن فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً». رواه البخاري والترمذي.

القائم في حدود الله: هو المُعتبر لها، الساهر عليها، العامل بها، آمراً ونهياً. والواقع فيها: هو الذي لا يُبالي بحُرُمات الله، ولا يرفع لاحترامها رأساً، ولا يتورّع من ملابستها. وقوله: «استهموا» أي اقترعوا. وقوله: «وإن أخذوا على أيديهم» أي منعوهم مما أرادوا وأنكروا عليهم. وقوله: «فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً» ظاهر الدلالة واضح البيان لما ذكرناه. والإنكار كما يجب أن يُوجه إلى كل فرد من أفراد الأمة وطبقاتها، وكذلك يجب أن يُوجه إلى ولاة الأمر وأمراء المسلمين وعُمالهم وحُكامهم إذا حَادُوا عن الطريق وجَارُوا وظلموا، فإن هِبْناهم وخَشِينا سَطْوَتَهم ولم نُنكر عليهم عمّنا الله بعذاب منه.

فعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يا أيّها الذين آمنُوا عليكم أَنْفسَكُم لا يَضُرُّكم مَن ضَلَّ إذا

اهتديتم﴾ الآية، وإني سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «إنّ الناسَ إذا رأوا الظالم فَلَمْ يأخذوا على يديه أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب مِن عنده». رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو أولَ حديث في المُسند للإمام أحمد وهو عنده صحيح على شَرط البخاري ومسلم. والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة مشهورة يجدها القارىء في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كتب السنة وغيرها.

مراتب الإنكار على أهل المعاصي

ولتَغْيير المُنكر مراتبٌ ثلاثة يجب مراعاتها، فيلزم أولاً أن يكون باليد ثم باللسان ثم القلب، وليس وراء ذلك شيء.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «من رَأى مِنْكُم مُنكراً فَلْيُغَيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». رواه أحمد ومسلم وأهل السنن.

فمن أَمْكَنَه التغيير باليد على أي صفة كان لزمه ذلك. فإن لم يتيسر له ذلك أو لم يقدر عليه بأن تيقن أو ظن لُحوق ضرر به، انتقل إلى الإنكار باللسان بشرط أن يكون أولاً برفق إن ظن تأثير ذلك وإلاّ أَغْلَظَ ووبَّخَ، فإن لم يقدر على ذلك لوجود مانع كخوف فتنة أو خوف على نفس أو عضو أو مال مُحترم أو شهر سلاح مثلاً تعين عندئذ التغيير بالقلب فقط، بأن يَكره ما رآه أو بلغه ويعزم أنه لو قَدِر على إزالته بقول أو فعل لفعل. أما إذا لم يُغيّر ولم يُنكر ولم يَكره ورضي بذلك فهو شريك للمباشرين والمجرمين. ويُعرف الرضى بذلك بعدم التألم عن الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً للمعاصي وأهلها إلاّ إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده مثلاً. فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راضٍ بالمنكر وشأنه شأن أرباب المُنكر، أفاده القسطلاني.

ولذلك جاء في حديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها عن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «إنه سيكونُ عليكم أئمة تَعرِفُون منهم وتُنكرون، فمن أنكر فقد بَرِىء، ومن كَرِه فقد سلم، ولكن من رضي وتَابع». رواه مسلم في المغازي ١٠/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣ ـ ٢٤٤ مع النووي، وأبو داود في السُنة رقم ٤٧٦٠، والترمذي في الفتن من جامعه والسياق له.

قال النووي: معناه من كَرِه بقلبه ولم يستطع إنكاراً بيده ولا لسانه فقد برىء من الإثم وأدّى وظيفته، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سَلِمَ من هذه المعصية، ومن رضي بفعلهم وتبعهم عليه في المعاصي... إلخ. وإنّما فسره على هذا الترتيب لأن سياق مُسلم جاء كذلك.

وقوله: «ولكن من رضي وتابع» فيه إشارة إلى أن المُؤيد لِفسق الفاسقين. وجَوْر الجائرين وظُلم الظالمين، والمُصاحب لهم والداخل عليهم والمُداهن لهم مُشارك لهم في الإثم والوِزر، بل قد جاء وعيد عظيم في أمثال هؤلاء المُداهنين المتملقين.

فعن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج إلينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: «إنه سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدّقهم بكِذْبهم وأعانهم على ظُلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد على الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يُعِنْهم على ظُلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وهو وراد على الحوض». رواه الترمذي في آخر الصلاة وفي الفتن من سُننه، والنسائي في البيعة ٧/ ١٤٣، وابن حبان رقم ١٥٧١ من طرق وإسنادهم صحيح، ورواه الحاكم ٣/ ٤٧٩ ـ ٤٠٨، وابن حبان رقم ١٥٦٩ عن جابر بسند صحيح. وفي الباب عن خباب بن الأرت والنعمان بن بشير وأبي سعيد الخدري[1].

فهذا وعيد شديد وتهديد أكيد، وإذا كان هذا الداخل عليهم والمُؤيد

---

(١) وحذيفة رواه أحمد ٥/ ٣٨٤ بلفظ: «إنها ستكون أمراء يكذبون ويظلمون فمن صَدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم» إلخ.

والمصدق لهم فما بالك بهم، إنّ شأنهم لعظيم وعظيم، فاحذر أيها المسلم مصاحبة أهل المنكر والفساد.

هذا وقد ذكر العلماء كالغزالي والعز بن عبد السلام وابن القيم وغيرهم لتغيير المُنكر شروطاً، كأن يكون مُتَّفَقاً عليه، وأن لا يؤدي إلى ما هو أنكر منه، وأن يظن تأثير التغيير، وأن يكون في المستطاع، ونحو ذلك. وفي بعضها نَظَرٌ، كاشتراطهم الاتفاق مثلاً، فإن من الأئمة من لا يرى تحريم الخمر إلّا من بعض الأنواع وهي منكر بنص الحديث، ومنهم من يرى إباحة إتيان الزوجة من الدبر وهو مُحرم منكر بالأحاديث الصحيحة، وغير هذا كثير جداً. فالصحيح أن المنكر هو ما خالف النص الصحيح الصريح ولو خالفه كل الأئمة. نعم، ليس من المُنكر ما كان دليلُه غير واضح الدلالة كأغلب المسائل الاجتهادية الخلافية التي لم يأت فيها دليل صريح بيّن.

إقامة الحد على الضعيف وترك الشريف

ومن أسباب الهلاك عدم المساواة في القصاص وإقامة الحدود، وهضم حق الضعيف والتعدي عليه وإهانته، وتقديس الشريف ذي الثروة والهيأة المادية وغض الطرف عما يقترفه من آثام وإجرام.

فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن قريشاً أَهمَّتْهم شأنُ المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ فقالوا: من يجترىء عليه إلّا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؟ فكلَّمه أسامة، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «أتشفع في حَدّ من حدود الله»، ثم قام فاختطب فقال: «إنما أَهْلَكَ الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». رواه البخاري في الحدود والشهادات والمناقب، ومسلم، والترمذي، وأبو داود رقم ٤٣٧٣، والدارمي، وابن ماجه رقم ٢٥٤٧، وابن الجارود كُلّهم في الحدود من طريق عُرْوَة عنها.

أهمّتهم: أي جَلَبَت إليهم همًّا أو صيّرتهم ذوي همّ بسبب ما وقع منها. يقال: أهمّني الأمر: أقلقني وأحزنني. وقوله: «شأن المرأة» أي أمرها في السرقة وإرادة النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قطع يدها. وهذه المرأة هي فاطمة بنت الأسود بنت أخي أبي سَلَمة زوج أم سلمة أم المؤمنين، وكان أبوها تُوفي كافراً ببدر قَتَله حمزة رضي الله تعالى عنه. وقوله: «سرقت» هذه هي الرواية المتفق عليها. وجاء في رواية لمسلم أنّها كانت تَسْتَعِيرُ المَتاعَ وتجحَدُه، وهي رواية صحيحة خلافاً لمن أعلّها وقال: إنها شاذة. وأبعد النجعةَ من قال: إنّ القصة وقعت لامرأتين كما ذهب إليه ابن حزم، فإن ذلك باطل. غير أن العلماء اختلفوا في الجمع بين الروايتين فرجّح بعضهم المتفق عليه، وقالوا القطع وقع عن السرقة وهذا مذهب الجُمهور، وحَملوا الرواية الأخرى على أنها كانت تَجْحَد بكثرةٍ ثم تَرَقّتْ إلى السرقة وتَجَرّأَتْ عليها حتى قطعت يدها لأجل ذلك[1]، وقيل غير هذا مما تجده مفصلاً في «الفتح» والنووي.

وقوله: «من يجترىء» إلخ، أي من يَقْدمُ ويتجَاسَرُ عليه من الجرأة وهو الإقدام بإدلال. وقوله: «حب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم» أي محبوبه، وكان أسامة ووالده زيد بن حارثة حِبَّي رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُحبهما حُباً شديداً، وقد جاء فيه في الحديث الصحيح: «اللهم إني أحبّه فأحبه». رواه البخاري في المناقب وقوله: «أتشفع في حد» إلخ، هذا الاستفهام يُقال له استفهام إنكاري توبيخي وهو يدل على ذم الشفاعة في الحدود وبالتالي على تحريمها ومنعها، إذ في ذلك تعطيل لحدود الله تعالى وتنفيذ أحكامه، وذلك ظُلم وجور ينافي العدالة والحُكم بالحق. لكن الشفاعة الممنوعة في الحدود إذا رفع الأمر فيها إلى الحاكم ففي هذه الحالة تَحرُم إجماعاً كما حكى ذلك النووي في شرح مسلم، أما قبل أن تُرفع إليه فتجوز كما جاء في أحاديث أخرى صحيحة، كحديث: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه

---

(١) وهذا رجّحه الخطابي والنووي والمُنذري والمازري.

ما شاء». رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري. ولذا قال ابن عبد البرَّ: لا أعلم خلافاً أن الشفاعة في ذوي الذنوب حسنة جميلة ما لم تبلغ السلطان، وأنّ على السلطان أنْ يقيمها إذا بلغته.

وذكر الخطابي وغيره عن مالك رحمه الله تعالى أنه فرّق بين من عُرف بأذى الناس ومن لم يعرف، فقال: لا يُشفع للأول مُطلقاً، أما من لم يُعرف بذلك فلا بأس أن يشفع له ما لم يبلغ الإمام. وهذا استنباط دقيق وجيه. وقوله: «إذا سرق» إلخ، المُراد بالشريف هنا ذو الجاه والرِّياسة الدُنيوية وأهل الثروة والغِنى. والضعيف المُراد به الوضيع الفقير الذي لا قيمةَ له ولا يُعبأ به. قوله: «وأيم الله» هذا من الأقسام والأيمان التي كان كثيراً ما يَحْلِفُ بها النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهو بمعنى أيمن الله. أما إعرابه فمبتدأ لخبر محذوف، كما هو معروف.

وقوله: «لو أن فاطمةَ إنّما خصّها بالذكر لأنها أعزّ الناس إليه وأحب أهله لديه، ولأنه إذا كان لا يُحابي في إقامة الحد على مثلها - وهي من هي - فغيرُها أولى وأحرى بأن لا تترك ويُعفى عنها. ففي الحديث ترك المُحاباة في إقامة الحدود على من وجب عليه ولو كان ولداً أو قريباً أو كبير القدر، وأنّ من ترخص في ذلك أو تعرض للشفاعة فيها يستحق اللوم والعتاب والتثريب والإغلاظ عليه.

والدلالة من الحديث ظاهرة حيث أن الأقدمين كانوا يتهاونون في إقامة الحدود، فيتركون أهل الجاه والرياسة وينفذونها في الضِعاف والمساكين ولا يساوون في تنفيذها بين سائر طبقات الناس[1]، فأهلكهم الله تعالى وأضلهم وأوقع بهم أَلِيمَ عذابه وأنواع نِقَمِه، لأن هذا ظلم ظاهر وخُروج عن أحكام الله المُنزلة على سائر أنبيائه، فالنّاس بالنسبة للأحكام الشرعية سواء لا فرق فيهم بين غني وفقير ولا شريف ووضيع ولا عالم وجاهل ولا صالح وطالح.

ففي هذا الحديث الشريف عِبَر هامة لنا لو كنا نعقل ونتذكر. فليتقِ الله

(١) وليس معنى هذا أنهم لم يُهلكوا إلاّ بهذا السبب، بل كانت فيهم أمور كثيرة اقتضت إهلاكهم. فهذا محمول على حصر مخصوص وهو الإهلاك بسبب المحاباة في الحدود، فلا ينحصر ذلك في حد السرقة.

رؤساءنا وحكامنا ومُتَوَلُّوا أمورنا، ولينفِّذوا أحكام الله ولا يجحفوا ويجوروا، وليُسَوّوا بين سائر الطبقات ولا يكونوا سبباً لجلب الوَبال والهلاك على شعوبهم، والله تعالى لا يُقدِّر أي أمة ولا يرفع من شأنها ولا ينصرها وهي لا تعطي حق الضعيف منها، بل تظلمه وتهضم له حقه.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: رَجَعَتْ مُهاجرةُ الحبشة إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ألا تحدثوني بأعجب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» قال فتية منهم: يا رسول الله، بينا نحن جلوس مرت علينا عَجُوز من عجائزهم تحمل على رأسها قُلّة من ماء، فمرَّتْ بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها على ركبتها فانكسرت قُلّتها، فلما ارتفعَتْ التَفَتَتْ إليه ثم قالت: ستعلم يا غُدَر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأوّلين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم أمري وأمرك عنده غداً. فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «صدقَتْ، صدقت، كيف يُقدّس الله قوماً لا يُؤخذ لضعيفهم من شديدهم». رواه ابن حبان رقم ١٥٥٤ - ٢٥٨٤ مطولاً ومختصراً، وابن ماجه رقم ٤٠١٠ في الفتن مطولاً وسندهما حسن، وللحديث طرق وشواهد يُصحح معها[1].

ومعنى هذا الحديث الشريف: كيف يُطهِّر الله أمة وينصرهم ويرفع شأنهم وهم لا يأخذون حق ضعيفهم من قويهم ولا ينصرون العاجز مع تمكنهم من

(١) فإنه وارد عن أبي سعيد الخدري رواه ابن ماجه، وعن معاوية وابن مسعود رواه الطبراني، وعن عائشة رواه البزار، وعن أبي سفيان بن الحارث رواه البيهقي، وعن بريدة رواه البيهقي وأبو يعلى بسند حسن، فالحديث صحيح.

وقول تلك المرأة: «يا غدر» هو بمعنى غادر وغدّار مبالغة في الغدر وهو بضم الغين المعجمة وفتح الدال المهملة. وحالة هذه المرأة تدل على أنها كانت مؤمنة بدين سيدنا عيسى الذي كان سائداً في تلك العصور في بلاد الحبشة. وقد تحدث القرآن الكريم عن مؤمنيهم الذين وفدوا على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتلا عليهم القرآن، فآمنوا به وصدقوه وخشعوا وفاضت أعينهم بالدمع كما هو مذكور في قوله عز وجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أشدَّ الناس عَدواةً للذين آمنوا اليهود والذين أشْرَكوا ولتجدنَّ أقْربَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى﴾ الآية.

ذلك. فما أعجب حالكم إن كُنتم ظَنَنْتُم أنكم مع تَمادِيكم في ذلك يُقدسكم الله ويُرَقيكم ويمكّن لكم ويرفع أمركم.

فلا شك أنّ من كان هذا حالهم في الظلم والتعدّي وهضم حق الضعيف العاجز وعدم تمكينه من حاجته ودفعه وطرده، كان مآلهم الهلاك المُحقّق والتأخر والانحطاط وانتصار أعدائهم عليهم.

اتخاذ القَصَّة ووصل شعر الرأس بغيره

ومن أسباب الهلاك: التَّشَبّه ببني إسرائيل، وعلى الأخص فيما يُغيّر خِلْقَة الإنسان وما يؤدي به إلى التشبع بما لم يُعطِه، كاتخاذ القصّة من الشعر مثلاً ووصلها بشعر الرأس كما تفعله كثير من نسوة عصرنا في بعض المناسبات، فترى المرأة مُقصّرة شعرها مثل لجمة وبعد قليل تشاهدها بسوالف وضفائر من شعر مُزوّر مكذوب. وقد أصبحت السوالف والشعور تُباع في الدكاكين وقياسرة التجميل على شتّى الصفات حسب رغبات المُشتريات والطاريات، فمنها الأسود، ومنها الأزعر، ومنها الأبيض، ومنها ومنها. وحتى البلاد المقدسة لم تنج من هذا الزور الملعون، فالدكاكين بالحرمين الشريفين مكة والمدينة ملآنة تُباع جهاراً وبدون أي رقابة، لأنّ نساء تلك البلاد أصبحن اليوم يَقْفُون أثر المتفرنجات والغربيات شِبراً بشبر. وبعد قليل سنرى في الحجاز ما لم نكن نتصوّرُه ولا يخطر لنا على بال، والبوادر ظاهرة لذلك. والمقصود أنّ هذا الزّور شائع في كل البقاع التي دخلتها حضارة أوربا الملعونة وهو من أسباب الهلاك.

فعن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حجَّ وهو على المنبر وتناول قصة من شعر كانت في يد حرس يقول: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟! سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يَنهى عن مثل هذه ويقول: «إنّما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم». رواه مالك في الموطأ رقم ١٨٢٩، والبخاري في ذكر بني إسرائيل، وهو ومسلم في اللباس،

وأبو داود رقم ٤١٦٧ في الترجّل، والنسائي في الزينة، والترمذي في الاستئذان ٤/ ١٥ ـ ١٦ مع التحفة.

كان معاوية أميراً بالشام فقام سنة إحدى وخمسين حاجّاً فلمّا كان بالمدينة وجد عند بعض أهلها كبة من شعر فدفعها إلى أحد حُراسه ثم قام خطيباً على منبر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخذها ونادى في أهل المدينة أين علماؤكم كالمستنكر عليهم، حيث أن الناس دبّت إليهم عوائد الأقدمين وأصبحوا يتشبهون باليهود والعلماء ساكتون لا يُغيّرون ذلك ولا يُبَيّنون للناس ما نهوا عنه. وقوله سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ينهى عن مثل هذه يعني إتخاذ النساء القصة من الشعر ووصلها بشعورهن يَتَزَيَّنَّ بذلك، لأن ذلك حرام ملعون فاعله أيا كان كما جاء في الصحاح من غير ما طريق: «لعن الواصلة والمستوصلة»، وسمّاه النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم زُوراً، ففي بعض طرق حديث معاوية هذا أخرج كبة من شعر وقال: ما كنت أرى أحداً يفعل هذا غير اليهود[1]، إن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم سمّاه الزُور، يعني الواصلة في الشعر. رواه البخاري في كتاب اللباس ١٢/ ٤٩٩ مع الفتح.

وإنّما سماه زوراً لأنه كذب وتشبع بما لم تعطه، فكانت فاعلة ذلك كلابس ثوبيَ زور كما جاء في الحديث الصحيح: «من تشبع بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور». وجاء في صحيح مسلم: «نهى عن الزور»، وفي أخرى: «ألا وهذا الزور»، قال قتادة: يعني ما تكثّر به النساء أشعارهن... إلخ.

---

(١) مخالفة اليهود والنصارى من أهم مقاصد البعثة المحمدية ولا سيما في مظاهرهم وشعائرهم وبالأحرى عقائدهم وعباداتهم. ولقد عرف هذا علماء الإسلام والمصلحون من هذه الأمة، فحذّروا من هذا الداء العُضال، ووضعوا في ذلك كُتباً ومؤلفات، وكتبوا في ذلك مقالات مسهبة هامة قديماً وحديثاً، وأحسن شيء تقرؤه أيها المسلم في ذلك وينفعك كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» للإمام أحمد بن تيمية، وكتاب «حجاب المرأة المسلمة» للشيخ ناصر الألباني، و«الاستنفار لغزو التشبّه بالكفار» لشيخنا الإمام أحمد بن الصديق رحمه الله، وأبحاث من كتاب «الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة» لأبي الأعلى المودودي، وبحث هام للشيخ المرحوم أحمد شاكر في شرح المسند ١٠/ ٢٥ وسيأتي لنا بنصه، وغير ذلك.

وقوله: «إنها هلكت بنو إسرائيل» إلخ، وفي رواية عند مسلم: «إنما عُذب بنو إسرائيل» ومعناه أن هذا الفعل من نسائهم كان من الأسباب الجالبة لهلاكهم وإنزال العذاب بهم، لأنه تغيير للخلقة التي خلقها الله تعالى والتظاهر بالكذب والزور مع ما فيه من المخادعة للرجال والتدليس عليهم. وقد تفنّن في هذا الزور نساء عصرنا بما لم يسبقن إليه فمنهن من يصلن الشعور مطلقات ومنهن من يجعلنه ضفيرات وهؤلاء فيهن مَن يُرخينه وراءهن، وأبشعهن وأقبحهنّ منظراً من يكنّ كذلك مع تقمصهن البنطلون السروال الطويل الموضوع أصالة لرجال الكفر، فيجمعن بين سلسلات من المناكر: التشبه بالكفار، التشبه بالرجال، وصل الشعر، كشف العورة بالتحديد الممقوت الملعون. ومنهن من يجعلن ذلك الشعر على أوساط رؤوسهن على هيأة تشبه سنام البعير، وهؤلاء هُنّ المعنيات بقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في حديث مسلم عن أبي هريرة: «ونساء كاسيات عاريات مائلات مُميلات رؤوسهن كأسنمة البُخْت لا يَدخُلن الجنة ولا يجدن ريحها» إلخ.

وفي رواية لأحمد: «العنوهن فإنهن ملعونات، لعنهن الله». والأسنمة: جمع سَنام بفتح السين وهو أعلى ظهر الجمل. والبُخت ـ بضم الباء وسكون المعجمة ـ: ضرب من الإبل عظام الأسنمة.

فإذا كان مُجَرّد وصل الشعر كان أحد أسباب هلاك بني إسرائيل، فكيف بنا نحن اليوم مع ما نشاهده ونراه من كشف العورات وفضح الأستار وفقدان العفة وطغيان النساء وتفتنهن في جميع أنواع الفسوق والفجور والتهتك والخلاعة الصرفة والإباحية المطلقة. فيا بني الإسلام ويا أبناء العرب، أين الغيرة الإسلامية، وأين الحمية العربية، فيا للوقاحة، ويا للعار، ويا للفضيحة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. والمقصود أن هذا الفعل من أسباب الهلاك وقد اتصف به نساؤنا وأهلكنا الله تعالى لذلك ولأسباب أخرى كثيرة.

مخالفة أمر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم توجب الذل والصَّغار

ومن أسباب الهلاك والعار والذل والهوان والخِزْي، مخالفة الأمر النبوي. قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الذين يُخالفون عن أمره أن تُصِيبَهم فتنةٌ أو يُصيبَهم عذابٌ أليم﴾. جاءت هذه الآية الكريمة عقب قوله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا مَعَه على أَمْرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يَسْتَأْذِنوه، إن الذين يَسْتَأْذِنُونَك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئتَ منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾.

فكان اسْتِئْذانه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فرضاً لازماً لا يجوز لمسلم أن ينصرف بدون أن يستأذنه في الانصراف، ثم هو صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان مُخيّراً بين من يأذن له وبين من يمنعه. ثم بعد أن استطرد الله تعالى إلى ذكر أدب من آداب مناداته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وأنه يجب تعظيمه وإجلاله وأن لا يُنادى إلاّ بما يدل على الاحترام من الألقاب والأوصاف كيا نبي الله، يا رسول الله، يا حبيب الله، ونحوها، وأن لا يُنادى باسمه مجرداً، بعد ذلك جاءت الآية ﴿فليحذر﴾ إلخ، ففي الآية تهديد عظيم ووعيد شديد وتَنْديد بالغ لمن يخالف أمر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فهي تُهدد المُعرضين عن أوامره بإصابتهم بالفتنة والعذاب.

ويؤيد هذه الآية في جوهرها حديث نَبوي صريح في الموضوع وإلى القارىء نصه: فعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذّل والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم». رواه أحمد رقم ٥١١٤ ـ ٥١١٥ ـ ٥٦٦٧ بسند حسن، وذكره البُخاري في كتاب الجهاد صحيحاً مُعلقاً، وله شاهد بطوله عن أنس رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان، وشاهد آخر مُرسل عن سعيد بن

جبلة عن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رواه ابن أبي شيبة بسند حسن. ولآخره «من تشبَّه بقوم» إلخ، شواهد عن حذيفة وأبي هريرة وغيرهما. والحديث حسّنه الحافظ في الفتح، وجوّده ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم، وصحّحه العراقي في كتاب الحج من المغني في تخريج أحاديث الإحياء، وانظر نصب الراية ٤/ ٣٤٧.

وقوله: «بعثت بين يدي الساعة» إلخ، معناه أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعثه الله في آخر الزمان قبيل الساعة بزمن قريب للدعوة إلى الله وقطع جذور الكفر من الأرض بالمقال أولاً وبالقتال لمن أبى ذلك ثانياً.

وقوله: «وجعل رزقي» إلخ، يعني أن الله تعالى جعل رزقه مما يَكْتَسبه من الغنائم التي يُنتجها القتال والجهاد، وحِلّية الغنائم من خصائصه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وخصائص أمته دون غيره من الأنبياء، كما جاء في أحاديث كثيرة.

والذل والصغار: معناهما الهوان والخزي. وما في هذا الحديث الشريف يطابقه واقعنا الحالي، فإننا نرى المسلمين اليوم وقبل اليوم لمّا خالفوا أوامر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأعرضوا عن طريقه وحادوا عن هديه وما جاء به، أهانهم الله تعالى وأذلّهم وصغّرهم في أعين الأمم المعاصرة لهم وأصبحوا مُحتقرين بين سائر الدول الراقية في دنياها، ولا يزالون كذلك حتى يُراجعوا دينهم ويتمسكوا بهدي نبيهم صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: «من تشبه بقوم فهو منهم» هو ظاهر في تحريم التشبه بالفسّاق والكفار في جَميع شؤونهم وأحوالهم، ولذلك قال ابن تيمية في «الاقتضاء»: هذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريمَ التشبه بهم وإنْ كان ظاهرُه يقضي كفر التشبه بهم، كما في قوله تعالى: ﴿ومَنْ يَتَوَلَّهم منكم فإنّه منهم﴾. قال: فقد يحمل هذا على التشبه المطُلق فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك. وانظر بقيته فإنه مهم جداً، وهو في «الاستنفار» ص ٢٢ ـ ٢٣.

وقال ابن كثير في تفسيره بعد أن ذكر حديث الباب ما نصه: ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك... إلخ. وقال قبل ذلك في قوله تعالى:

﴿ولا تقولوا راعنا﴾ إلخ: نَهى الله تَعالى عِباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفِعَالهم... إلخ.

وقال الأمير الصنعاني في «سبل السلام» على هذا الحديث ما نصه: والحديث دالٌّ على أنّ من تَشَبَّه بالفُساق كان منهم أو بالكفار أو بالمبتدعة في أي شيء مما يختصون به من ملبوس أو مركوب أو هيأة. قالوا: فإذا تشبه بالكافر في زيٍّ واعتقد أن يكون بذلك مثله كفر، فإن لم يَعتقد ففيه خلاف بين الفقهاء منهم من قال يكفر وهو ظاهر الحديث، ومنهم من قال لا يكفر ولكن يؤدب.

وقال أبو الأعلى المودودي، المصلح الكبير والداعية المشهور، في كتاب «الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة»: ليس اختيار أمة للباس أمة غيرها وطريقها للمعيشة إلّا نتيجة وإعلان لما في هذه الأمة من مُركب النقص. وبكلمة أخرى فإنّها تعتبر نفسها أمة ذليلة ليس عندها شيء تفتخر به أو تعتز به، وأنّ أسلافها ما كانوا قادرين على أن يتركوا لها شيئاً تحتفظ به وتُعلن نسبته إليها بدون خجل ولا غضاضة، وأنّ ذوقها القومي وفكرتها القومية في غاية من الدناءة والبلادة.

وقال أيضاً: تشبّه أمة بأمة غيرها هو أمر يُنافي الفطرة والعقل ولا يَتولّد إلّا حين تُصاب أمة بداء الانحطاط وفقدان الحياء. ولذا فإن الإسلام لا يُبيحه إلى أن قال: وفوق هذا، فإنّ هذا النوع من التشبه فِعْلةٌ شنيعة مَثَلُها كمثل رجل ينسب نفسه إلى غير أبيه فكما أن نَاسِبَ نفسه إلى غير أبيه مَلُوم لأنه يرى نسبته إلى الحقيقي عار لنفسه، كذلك فإنّ من يُولد في أمة ولكنه يتشبّه بأمة أخرى ابتغاء العزة والفخار، يستحق اللومة لأنه بذلك يَشهد أنه من العار أن ينتسب إلى الأمة التي أنجبته. قال: والذين يسلكون هذا السبيل لا هُمْ من الأمة التي وُلدوا فيها ولا من الأمة التي يُحبون أن يُعَدُّوا منها لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، ولهذه الأسباب كان الصحابة ـ وخاصة عمر وعلي منهم رضوان الله عليهم أجمعين ـ قد وبّخوا الأفراد الذين تركوا لباس العرب بعد استيطانهم البلاد المفتوحة، واختاروا لباس الروم والفرس افتتاناً بِمَدَنيَّتِهم. قال وتشبّه المُسلم بغير المسلم فعلةٌ مُضرة بوحدة الجماعة الإسلامية، إذ لأجلها ينشأ الجفاء والتباعد بين المسلم والمسلم ولا يبقى بينهما من التناصر والتعاون والتضامن ما يريد الإسلام أن يكون بينهما، وهي مع ذلك دليل على ميل صاحبها عن إسلامه إلى غير المسلمين. كما إنها

فعلةٌ شنيعة من الوجهة السياسية كذلك. إذ أنّها تُضمر في طيّاتها خَطراً جسيماً لأن الرجل المُتشبه بالكفار قد يُعامله المسلمون معاملتهم مع غير المسلمين، ولأجل ذلك فقد شدّد النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم النكير على هذا التشبه ونهى عنه المسلمين مراراً. . . إلخ. وله في الكتاب غير ما ذكرنا فارجع إليه.

ولنختم هذا الموضوع بكلام المُحقق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى نقلاً عن شرحه «للمسند»، فقد قال على حديث عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى عليه ثوبين مُعَصْفرين ـ ما صبغ بالعصفر وهو صبغ أحمر معروف ـ قال: «هذه ثياب الكفار لا تلبسها»، ما نصه ١٠/ ٢٥ ـ ٢٦ رقم حديث ٦٥١٣:

وهذا الحديثُ يدل بالنص الصريح على حُرمة التشبه بالكفار في اللبس وفي الهيأة والمظهر، كالحديث الآخر الصحيح: «ومن تشبه بقوم فهو منهم».

قال: ولم يختلف أهلُ العلم منذ الصَّدر الأول في هذا، أعني في تحريم التشبه بالكفار حتى جئنا في هذه العصور المُتأخرة، فنبتت في المسلمين نابتةٌ ذليلة مُسْتَعْبَدة هجراها وديدنها التشبه بالكفار في كل شيء والاستخدام لهم والاستعباد، ثم وجدوا من المُلتصقين بالعلم المنتسب له من يُزين لهم أمرهم ويُهونُ عليهم أمر التشبه بالكفار في اللباس والهيأة والمظهر والخُلق وكل شيء، حتى صرنا في أمة ليس لها من مظهر الإسلام إلاّ مظهر الصلاة والصيام والحج، على ما أدخلوا فيها من بدع بل من ألوان بالتشبه بالكفار أيضاً.

وأظهر مظهر يُريدون أن يضربوه على المسلمين هو غطاء الرأس الذي يُسمونه القبعة ـ البرنيطة ـ وتعلّلوا لها بالأعاليل والأباطيل. وأفتاهم بعض الكبراء[1] المُنتسبين إلى العلم أن لا بأس بها إذا أريد الوقاية من الشمس، وهم يأبون إلاّ أن يُظهروا أنهم لا يريدون بها إلاّ الوقاية من الإسلام، فيصرح كُتّابهم ومُفكروهم بأنّ هذا اللباس له أكبر الأثر في تغيير الرأس الذي تحته، ينقله من تفكير عربي ضيق إلى تفكير إفرنجي واسع. ثم أبى الله لهم إلاّ الخذلان،

(١) هو محمد عبده.

فتَناقضوا ونقضوا ما قالوا من حُجة الشمس إذ وجدوا رأسهم لم يستطيعوا ضرب هذه الذلة على الأمة فنزعوا غطاء الرأس بمرّة، تركوا الطربوش وغيره ونسوا أن الشمس ستضرب رؤوسهم مباشرة دون واسطة الطربوش، ونسوا أنهم دعوا إلى القبعة وأنه لا وقاية لرؤوسهم عن الشمس إلاّ بها. ثم كان من بعض سنين أن خرج الجيش الإنجليزي المُحتل للبلاد من القاهرة والإسكندرية بمظهره المعروف، فما لبثنا أن رأيناهم ألبسوا الجيش المصري والشرطة المصرية قُبعات الإنجليز، فلم تَفْقد الأمة في العاصمتين وفي داخل البلاد منظرَ جيش الاحتلال الذي ضَرَبَ الذلة على البلاد سبعين سنة، فكأنهم لم يَصبروا على أن يفقدوا مظهر الذُل الذي أَلِفوه واستساغوه ورُبّوا في أحضانه، وما رأيتُ مرةً هذا المنظر البشع، منظر جنودنا في زي أعدائنا وهيئتهم، إلاّ تَقَزَّزَتْ نفسي وذكرت قول عُميرة يَذم قبيلة تَغْلب:

إذا ارتحلوا عن دار ضَيْم تعاذلوا ... عليهم وردّوا وفدهم يستقيلها

وهذا الذي ذكره رحمه الله تعالى هو الواقع في جميع البلاد الإسلامية، ذلك أن القوم نشأوا مع الكفار وأُشربوا روح أخلاقهم وطبائعهم. فصَعُب عليهم الرجوع إلى دينهم وقوميتهم وعروبتهم، فأغرقوا في التفرنج وصاروا وراء أعدائهم في جميع شؤونهم، وكُلّ مَن كان أغرق في اتباعهم والتشبع بروحهم كان أحظى لديهم وأولى بالرياسات العليا وأحق بالوظائف العامة، فأفسدوا بذلك الشعوب الإسلامية وأضلّوها ومسخوها وأكفروها، وبالتالي أهلكوها.

ترك الجهاد والإخلاد إلى الحياة

ومن أسباب الهلاك التشاغل بالحياة والتوغّل في اكتساب الأموال من الحرام، وانتشار الغش والخديعة والضن بالأموال والبخل بها مع الإعراض عن الجهاد في سبيل الله.

فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «إذا ضنّ الناسُ بالدينار والدِّرهم وتبايعوا بالعِين

واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاء فَلَم يرفعه عنهم حتى يُراجعوا دينهم». رواه أحمد في مسنده رقم ٤٨٢٥، ورجاله رجال البخاري ومسلم غير أن أبا بكر بن عياش فيه كلام، لكنه لم ينفرد به فقد تابعه يحيى بن سعيد أبو حيان، ورواه أحمد أيضاً رقم ٥٠٠٧ من طريق شهر بن حوشب وفيه كلام لا يضر هنا وسياقه من هذا الطريق: «لئن تركتم الجهاد وأخذتم أذناب البقر وتبايعتم بالعينة ليلزمكم الله مَذَلَّة في رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا على ما كنتم عليه».

وللحديث طريق آخر رواه أبو داود في كتاب البيوع رقم ٣٤٦٢، والبيهقي ٥/ ٣١٦ في السنن، كلاهما من رواية عطاء الخراساني أن نافعاً حدّثه عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتَرَكْتُم الجهاد، سلَّطَ الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم». وهو من هذا الطريق ضعيف لكنّ الحديث صحيح بطريقيه الأولين.

قوله: «إذا ضنّ الناس إلخ، أي بَخَلُوا، فالضن هو البخل بالشيء. والعين في رواية العِينة هي بكسر العين معناها السلف، والمُراد بها أن يبيع الرجل شيئاً من غيره بثمن إلى أجل ويُسلّم المَبيع إلى المُشتري ثم يرجع البائع فيشتريه منه قبل قبض الثمن بثمن أقل مما باع به وينقده الثمن معجلاً.

واتباع أذناب البقر عبارة عن لزوم الحراثة والزراعة والتكسب والانقطاع إلى ذلك كُلِّية.

والحديثُ واضح فيما ذكرناه، ففيه أربعة أشياء كُلها من موجبات الهلاك:

الأول: الضن بالدينار والدرهم والبخل بهما وإمساكُهما وكنزُهما وعدم إنفاقهما ومساعدة المحتاجين، والضن بذلك أعمّ من البخل بأداء حق الله تعالى من زَكَوات ونفقة من تلزم الإنسان نفقته. والبخل بالزيادة ومواساة الفقراء والمساكين والسائلين واليتامى والأرامل والضعاف من الشيوخ والعجزى والزمني. وتخصيص الدينار والدرهم والتنصيص عليهما لأنهما الأصل في الأموال، وهما العملة الوحيدة السائدة في العالم والمنتشرة في كل الأقطار وارجاء الدنيا في كل

الأزمنة، فلا مفهوم لهما بل غيرهما مما يتعامل به الناس اليوم مثلهما. وكذلك الأنعام كالإبل والبقر والغنم والحبوب كالقمح والشعير ونحوهما والثمار كالتمر والعنب وغيرهما حكُم كل أولئك واحد. وكذلك كُل ما يتموله الإنسان ويقتنيه من مكاسب ومراكب وملابس ومساكن وأثاث، فالكل فيه حق لله تعالى إما على سبيل الإلزام والإجبار، وإما على سبيل مكارم الأخلاق والمواساة الإسلامية والأخوة الدينية. فضنّ الناس بكل ذلك من أسباب الخزي.

الثاني: المُعاملة بالغش والخديعة والخيانة وأنواع الخلابة والمَكر والحيل، وعبّر صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن كل ذلك بنوع واحد منها وهي العينة لأنها من أقبح أنواع الحِيل والخَديعة، ونبّه بها عن كل ما ينافي النصيحة والعطفة والرأفة ومعاملة الأخوان المسلمين بالجميل وما يعود عليهم بالنفع الكامل. وقد أصبح المسلمون اليوم من أغرق الناس في الإتِّصَاف بهذه الرذائل الساقطة حتى لا تكاد تثق بأي فرد منهم في معاملتك معهم ـ إلاّ من رحمه الله ـ بل عُدِمتْ الثقة وفُقدت منهم كلية، والحوادث في ذلك كثيرة اللهم الا أن يوجد هناك أفراد قلائل، فهم بالنسبة إلى الأكثرية الساحقة في حيز العدم. فإياك ثم إياك بالثقة اليوم بكل أحد لفساد الأخلاق وفقدان خوف الله تعالى وسوء طويّة الآدمي المعاصر.

الثالث: اتباع أذناب البقر والمُراد بذلك لُزوم الحراثة واستثمار الأرض والتشاغل بها عن الدين ومشاعره ومُهماته والتَّوَغُّل في الاكتساب والانقطاع إلى جمع الدنيا وحطامها. وعُبر باتباع أذناب البقر لأن المُخاطبين وقته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كانوا أهل زراعة وحراثة وفلاحة وإلا فكل أنواع الإكتساب داخلة في ذلك إذا شُغل بها المسلمون عن مهمات دينهم الفردية والاجتماعية.

الرابع: ترك الجهاد أي قتال أعداء الدين وغزو الطوائف الكُفرية، لأن ترك قتالهم وغزوهم وشن الغارة من وقت لآخر عليهم يوجب محاربتهم لنا وتسلطهم علينا وهجومهم على بلادنا واستعمارهم بلادنا، لأن العدو كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

وهذه الخصال الأربعة قد وجدت كلها في الأمة الإسلامية منذ أزمنة ولا تزال فينا نرثها أباً عن جد، وجيلاً عن جيل، ولذلك أنزل الله تعالى بنا أنواعاً من البلاء وألزمنا مَذلة وخِزياً وسلّط علينا أعداءنا من الكفرة وشرار خلقه من إخوان القردة والخنازير، فأهانونا وأذلونا وأخزونا وأخافونا وفرّقونا وشَتتوا شَملنا وغزونا بكل أنواع الغزو، حتى انتهى بهم إلى غزو عقائدنا فتركونا مُنحلين من كل دين وخُلق وذلك كله ناشىء من جراء ما ارتكبناه.

والمقصود أن ما في هذا الحديث الشريف قد خيّم فينا وعشعش وباض وفرخ وانتشر وظهر مصداقه، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فالذل قد نزل بنا والهوان قد أحاط بخيامنا والعذاب قد أحدق بساحتنا فلا يرفع الله كل ذلك عنّا حتى نراجع ديننا بكل أصوله وفروعه.

استحلال العرب لبيت الله الحرام

ومن أسباب هلاك العرب على الخصوص استحلالهم بيت الله تعالى وانتهاكهم حُرمته وعدم احترامهم وتقديسهم إياه.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «يُبايع لرجل بين الركن والمقام، ولن يستحلّ هذا البيت إلّا أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تظهر الحبشة فيخربونه خراباً لا يُعمّر بعده أبداً وهم الذين يستخرجون كنزه». رواه الطيالسي رقم ٢٧٧٢ ولفظُه: «وأول من يستحل هذا البيت أهله... إلخ، ورواه الحاكم ٤/ ٤٥٢ - ٤٥٣، وأحمد رقم ٧٨٩٧ - ٩٩ - ٨٠ ثلاثتهم من طريق ابن أبي ذئيب عن سعيد بن سمعان عنه وإسناده عندهم صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما واعترضه الذهبي بقوله: ما خرجا لابن سمعان شيئاً ولا روى عنه غير ابن أبي ذئيب وقد تُكلم فيه.

وأقول: أما كون الشيخين لم يرويا لابن سمعان شيئاً فهو أمر صحيح. وأما كَونه لم يَرْوِ عنه غير ابن أبي ذئيب فقد ذكر الحافظ في التهذيب راويين آخرين روياً عنه. وأما قولَه إنه تُكلم فيه فإنه لا قيمة له لأن الذي تَكلّم فيه هو الأزدي وحده، ومن المعلوم أنه ينفرد بتضعيف كثير من الرُّواة بدون حُجة، ويكفي في هذا أن الرجل وثّقه النسائي والدارقطني وابن حبان. وأن البخاري وابن أبي حاتم لم يَذكرا فيه جرحاً.

قوله: «يُبايع لرجل» إلخ، هذا الرجل الذي بُويع أو سيُبايعَ، يُحتمل أن يكون المهدي[1] المنتظر كما جاء في صفته ويكون ذكره تعظيماً وإجلالاً له، ويُحتمل أن يكون رجلاً آخر من أفراد الأمة وآحادها وبعض أمرائها وخلفائها.

وقوله: «بين الركن والمقام» أمّا الرُكن فالمراد به أحد أركان الكعبة المكرمة وهو الموجود فيه الحجر الأسود وأحد الركنين اليمانيين. أما المَقام فالمُراد به مقام سيدنا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهو حجر فيه أثر قدميه الشريفين كان يقوم عليه حينما كان يبني بيت الله المقدس، وموقعه الآن قُبالة الركن العراقي لجهة المشرق داخل قبة صغيرة بنيت عليه منذ ثمان سنوات وأحيط عليه بزجاج شفاف من نوع البلور يراه ويشاهده كُلّ من أراده من الطائفين وغيرهم.

وهذا الموضع أعني ما بين الركن والمقام يعد من أفضل بقاع الأرض وأشرفها وأكرمها عند الله تعالى على أنه لا مفهوم لهذا الموضع بل كل مكة المكرمة كذلك.

فعن عبد الله بن عدي بن حسراء رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم واقفاً على الحزورة فقال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»، رواه أحمد، والترمذي ٤/ ٣٧٥ بالتحفة في المناقب، وابن ماجه في المناسك رقم ٣١٠٨، وابن حبان رقم ١٠٢٥ مع موارد الظمآن، كلهم من طريق الزهري عن أبي مسلمة عنه، وحسنه الترمذي وصححه وإسناده صحيح.

---

(١) جاءت في خروج الإمام المهدي أحاديث كثيرة صحيحة بل متواترة تواتراً معنوياً كما ذكرها العلماء وألفوا فيها التآليف العديدة الممتعة.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لمكة: «ما أَطْيَبَكِ من بَلَدٍ وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك». رواه الترمذي وابن حبان في المصدرين السابقين، وحسنه الترمذي أيضاً وصحح.

وفي آخِر البر والصلة من جامع الترمذي عن ابن عمر أنه نظر يوماً إلى البيت والكعبة فقال: «ما أعظمك وأعظم حُرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وهو كما قال.

ورواه ابن ماجه في الفتن من سننه رقم ٣٩٣٢ عنه مرفوعاً قال: رأيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حُرمة منك، ما له ودمه وإنْ نظن به إلاّ خيراً». وفي سنده نصر من محمد الحمصي ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان.

فالحديثان الأولان يُفيدان أنّ مكة المكرمة أفضل بلاد الله تعالى وأحبها إليه وإلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولا شكَّ أنها ما شُرّفت إلاّ بوجوديته فيها، متّعنا الله به وبحجه وزيارته كل عام، آمين إنه على ما يشاء قدير.

وقوله: «ولن يستحل» إلخ، معناه أنّ الذين يَنْتَهكون حُرمة هذا البيت هم سُكانه وذووه لإيلافهم تلك البقعة الطاهرة وسُقوطها من عينهم وعَدم مبالاتهم بعظمتها ومكانتها، فيحملهم ذلك والعياذ بالله على استحلال حُرمتها فينتهكون فيها ما حرمه الله ومنعه فيها، فسكان الحرم اليوم لا يعتبرونه ولا يبالون بقَدَاسته، بل ولا مفهوم لسكانه بل أغلب الطارئين عليه هم كذلك، فالحُجاج والزوّار يَنْتَهكون فيه ما حرَّمه الله تعالى وما لا يفعل إلاّ ببلاد شاسعة عنه، وهذا ما يكون سبباً في هلاك العرب. ولذلك قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «فإذا استحلوا فلا تسأل عن هلكة العرب» أي إذا انتهكوا حُرمته وأحلُّوا فيه ما هو محرم عليهم فيه، من سفك الدماء ونشر الفساد وإذاعة الفجور وإشاعة المعاصي فلا تسأل أيها المسلم عن كيفية هلاك العرب وعن صفته، وبماذا سيعذبون وفي أي وقت يفاجأون. وهذا التعبير جارٍ على ما اعتادته العرب في مخاطباتها إذا ما

أرادوا الإخبار عن حُلول داهية وبلية بإنسان أو قوم أو بلدة، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تَسأَلُ عن أصحابِ الجحيم﴾ على قراءة من فَتَح التاء كنافع.

وقوله: «ثم تظهر الحَبَشة». هذا من تتمة هلاكهم فإنهم إذا استحلوا بيته تتابعت عليهم النّقم وتَوَالت عليهم البلايا والفتن، ثم يكون مُنتهى آخر بيتهم ظُهور الحبشة عليهم وعلى بيتهم وقبلتهم وتخريبهم إياها حَجراً حجراً، ثم يستخرجون كنزها المدفون وينهبونه نهباً، ثم يبقى بيت الله مُخرباً لا يُعَمَّر أبداً حتى تقوم الساعة. وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «يُخَرِب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»، فالحديث واضح في أن استحلال بيت الله تعالى من أسباب هلاك العرب والقضاء على شَوْكَتهم وشملهم، ولا يبعد أن يكون ما نزل بهم الآن من جراء انتهاك حُرمته من أزمنة، فإن التاريخ يُحدثنا عن انتهاك أمم كثيرة وأجيال عديدة حُرمة هذا البلد الأمين، ولا ندري ماذا سيحل بنا في المُستقبل بعد أن أُصِبْنا بهذه الداهية التي لم تُبقِ ولم تَذَر، وهي داهية الصهاينة الملاعين أخزاهم الله.

وإن كُنا والحمد لله مُبشَّرين من قِبل نبينا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بحفظ الله للبلاد المُقدسة على العموم والحرمين على الخصوص من الصهاينة، ومن حلول دين آخر غير دين الإسلام بها. فقد قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن إبليس قد يئس أن يُعبد في أرض العرب». رواه مُسلم في صحيحه عن جابر.

وما أمره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه بإخراج المُشركين واليهود والنصارى من جزيرة العرب إلاّ إشارة لهذا الغرض، فقد قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عند وفاته: «أخرجوا المُشركين من جزيرة العرب». رواه البخاري عن ابن عباس. وقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لئن عِشْتُ لأُخرِجَنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب لا أترك فيها إلاّ مُسلماً». رواه مسلم.

وقد نفذ عمر رضي الله تعالى عنه هذه الوصية النبوية فأخرجهم في خلافته كما في الصحيحين.

وعن الحارث بن مالك الليثي أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لا تُغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة». رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم، وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم عند الترمذي، انظر تهذيبي للجامع رقم ١٤٧٦ من كتاب السير.

ففي الحديث بشارة عظيمة لنا معشر الأمة الإسلامية حيثُ أن مكة المكرمة لا يَغزوها أحد بعد الفتح النبوي إلى يوم القيامة أو قبلها بقليل على يد الحبشة، وفي طيه حفظها من الصهاينة الملاعين.

الأغيلمة القرشيون

ومن أسباب هلاك الأمة ولاية بعض غلمان قريش وإمارتهم على الناس.

قال البخاري في كتاب الفتن من صحيحه: باب قول النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء». ثم أورد حديث أبي هريرة من طريق سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، قال: كنت جالساً مع أبي هريرة في مسجد النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالمدينة ومعنا مروان، قال أبو هريرة: سمعت الصادق المصدوق يقول: «هلكة أمتي على يدي غَلَمة من قريش»، فقال مروان لعنة الله عليهم غلمة. فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فُلان وبني فلان لفعلت. قال عمرو بن يحيى فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا بالشام، فإذا رآهم غلماناً أحداثاً قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم، قلنا: أنت أعلم.

ورواه الإمام أحمد والنسائي بلفظ: «إن فساد أمتي على يدي غلمة سفهاء من قريش».

وقوله: «غلمة» هو جمع غُلام وهو الصبي دون أن يحتلم. وقد يُطلق على الضَّعيف العقل والدين والتدبير، ولو كان مُحتلماً وهو المراد هنا، ولذلك سَمّاهم سفهاء وهو جمع سفيه وهو الذي لا عَقلَ له ولا دين ولا مروءة. وقوله: «من قُريش»: إنما خصَّهم بالذكر والله أعلم إما لكونهم أهل الخلافة والإمارة كما قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لا يزال هذا الأمر - يَعني أمر الخلافة - في قريش ما بقي من الناس إثنان». رواه أحمد والبخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه، وقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن هذا الأمر في قُريش لا يُعاديهم أحد إلاّ كبّه الله على وجهه، ما أقاموا الدين»[1]. رواه أحمد والبخاري عن معاوية.

وقد صدّق ما في هذين الحديثين الواقعُ، فإن الخلافةَ لم تنقطع من قريش أبداً في كل عصر من العصور، فلم يزل بعضُ الأمراء القُريشيين في بعض الأقطار الإسلامية وإن انقطعوا أحياناً من بعض الجهات. فبعد انقراض دولتي الأمويين والعباسيين الذين كانوا يَلُون أكثر الأقطار الإسلامية، بقي بعضُ الأمراء من أهل البيت باليمن والحجاز، وكذلك المغرب الأقصى العربي لم يَزل على خلافة قريش منذ العصور الأولى ولا يزال كذلك إلى وقتنا هذا أواخر القرن الرابع عشر، ولذلك قال الكرماني: لم يخلُ زمان من وجود خليفة من قريش.

وإمّا لأنّ الناسَ تَبَعٌ لهم في كل زمان ومكان لشرفهم ومكانتهم، فلا تجد منهم عالماً ولا رئيساً ولا زعيماً ولا قائداً ولا مُصلحاً، إلاّ شريفاً ومرموقاً مَسموع الكلمة متبوعاً يُقدِّره الناس وينقادون له. ولذلك قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مُسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم»[2]. رواه البخاري ومسلم عن أبي هريره. والحديث وإن كان مُحتملاً

---

(١) معناه: إنّ لهم هذا الأمر باستحقاق ما داموا على الجادة، فإذا حادوا عنها لم يَبق لهم في ذلك حق. فقد قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «الأئمة من قُريش ولهم عليكم حق، ولكم مثل ذلك، ما إن استُرحموا رحموا وإن استُحكموا عدلوا وإن عاهدوا وفوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل». رواه أحمد والنسائي عن أنس بسند صحيح.

ولذلك جاء في حديث آخر في الأمراء الظَلَمة: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما إن أقاموا الصلاة» إلخ. ووردت أحاديث كثيرة في الأمر بالصبر على جورهم وظلمهم.

(٢) وفي حديث علي عليه السلام عند الحاكم والبيهقي بسند صحيح: «الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها وفُجارها أمراء فجارها...».

لملوك بني مروان والأمويين كما فَهِم ذلك أبو هريرة فظاهرُه العموم لقوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «يُهلكُ الناسَ هذا الحي من قريش». رواه البخاري في علامات النبوة ومسلم في الفتن عن أبي هريرة ولفظ مسلم: «يهلك أمتي».

فحَمْلُه على الأمويين وحدَهم لا دليل عليه، فإنّ الهلاكَ الحاصلَ للأمة بأمراء قريش الذين جاءوا في العُصور الأخيرة أشد وأقبح بكثير من هلاك الأولين، فإن الأمراء المُتأخرين أضلُّوا الناسَ وأكفروهم وأفسدوا مُجتمعاتهم وأحاطوهم بمشاكل عويصة لا مخرج لهم منها، مع أشياء أخرى لا داعي لذكرها.

هلاك بعض أصناف هذه الأمة
لأشياء يرتكبونها

وسيُهلك الله تعالى أصنافاً من هذه الأمة لارتكابهم أشياء يستحقون بها أنواعاً من الهلاك، كالمسخ والخسف والقذف وغيرها، وفي ذلك أحاديث حضرنا منها ما يلي:

عن نافع أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما جاءه رجل فقال: إن فلاناً يقرأ عليك السلام، فقال: إنه بَلَغني أنه قد أحدَثَ، فإن كان أحدثَ فلا تُقرئه مني السلام فإني سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «في هذه الأمة أو في أمتي خسف أو مسخ أو قذف في أهل القَدَر». رواه أحمد في المسند ٢/ ١٣٦ رقم ٦٢٠٨، وابن ماجه في الفتن رقم ٤٠٦١، والترمذي في القدر ٣/ ٢٠٣ بتحفة الأحوذي، ثلاثتهم من طريق أبي صخر عن نافع وأسانيدهم صحيحة على شرط مسلم، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب.

ورواه بِبَعضِ معناه أحمد أيضاً ٢/ ٩٠ رقم ٥٦٣٩، ومن طريقه أبو داود في السنة رقم ٤٦١٣ من طريق أبي صخر، غير أنه قال في آخره: «سيكون في أمتي أقوام يُكذبون بالقدر». وإسناده صحيح على شرط مسلم أيضاً. وكذا رواه الحاكم ١/ ٨٤ من طريقين عن أبي صخر وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، ورواه أحمد أيضاً ٢/ ١٠٨ رقم ٥٨٦٧ من طريق رشيد بن سعد، ولفظه: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «سيكون في هذه الأمة مَسْخٌ، ألا وذلك في المُكذبين بالقدر والزندقية»، ورشيد ضعيف.

وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «في هذه الأمة خَسْفٌ ومسخ وقذف»، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: «إذا ظهرت القِيان والمَعَازف وشُرِبَت

الخُمور». رواه الترمذي في الفتن من الجامع ٣/ ٢٢٥، ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن عبدالقدوس وهو صدوق يخطىء، وذكره ابن حبان في الثقات فالحديث حسن.

وعن ابن مالك الأشعري[1] رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لَيَشْرَبن ناسٌ من أمتي الخمر يُسمونها بغير اسمها، يُعزَفُ على رؤوسهم بالمعازف والمُغنيات، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير». رواه أبو داود رقم ٤٠٣٩، وابن ماجه في الفتن رقم ٤٠٢٠ واللفظ له، وابن حبان في صحيحه رقم ١٣٨٤ بالموارد، كلهم من طريق عبد الرحمن بن غنم وإسناده صحيح، وذكره البخاري في كتاب الأشربة من صحيحه، وطعن فيه ابن حزم في «المحلى» وأباح لذلك الأغاني على الإطلاق ورد عليه العلماء بأن الحديث صحيح متصل حتى قال الحافظ العراقي في «ألفية الحديث» في بحث الحديث المُعلق:

وإن يَكُن أول الإسناد حَذْفُ ... مع صيغة الحزم فتعليقاً عرف
ولو إلى آخره أما الذي ... لشيخه عزا بقال فكذي
عنعنة كخبر المعازف ... لا تُصغ لابن حزم المخالف

وانظر شرح الأبيات عند ناظمها في «التبصرة» و«فتح الباري» للحافظ.

ولفظه عند البخاري: قال هشام بن عمار: ثنا صدقة بن خالد، ثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، ثنا عطية بن قيس قال: حدثني عبد الرحمن بن غنم، قال: حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «ليكونن في أمتي أقوام يستحِلُّون الحر والحرير والخمر والمعازف».

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يكون في أمتي خَسْفٌ ومسخٌ». رواه ابن حبان رقم ١٨٩٠ بسند حسن.

---

(١) عند بعضهم أبو عامر أو أبو مالك.

حديث آخر له رواه الترمذي في الفتن من جامعه ٣/ ٢٢٥ بلفظ: «إذا فَعَلَت أُمتي خَمْسَ عشرةَ خصلةً حلّ بها البلاء»، فذكرها وفيه: «وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات...». وفي سنده رجل مجهول وله شاهد عن سيدنا علي رضي الله تعالى عنه رواه الترمذي في المصدر المذكور أيضاً، وفي سنده الفرج بن فضالة مُتكلَّم فيه كما فيه انقطاع أيضاً.

وفي الباب شواهد عن ابن عباس وعبادة بن الصامت وأبي أمامة رضي الله تعالى عنهم أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «والذي نفسي بيده لَيَبِيتَنّ ناسٌ من أمتي على أشَرٍ وبَطَرٍ ولَعِب ولهوٍ فيُصبحوا قِرَدةً وخنازير باستحلالهم المحارم والقينات، وشُربهم الخمر وأكلهم الربا ولبسهم الحرير». رواها عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند وفيها ضعف وتتأيد بما تقدم.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنه رواه ابن ماجه رقم٤٠٦٢ من طريق أبي الزبير ورجاله ثقات مع انقطاعه فإن أبا الزبير لم يلق عبد الله بن عمرو ولفظه يكون: «في أمتي خسف ومسخ وقذف».

وعن سهل بن سعد رواه ابن ماجه رقم ٤٠٦٠ من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وفيه ضعف ولفظه كسابقه.

وعن أبي سعيد الخدري رواه الطبراني في المُعجم الصغير ٢/ ٧٦ وفيه زياد الجصاص ضعيف ولفظُه: «يكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف في مُتخذي القيان وشاربي الخمر ولابسي الحرير».

وعن ابن مسعود رواه ابن ماجه رقم ٤٠٥٩ ورجاله ثقات مع انقطاعه.

وعن عائشة رواه الترمذي في الفتن ٣/ ٢١٥ من طريق عبد الله العمري وفيه ضعف من قبل حفظه ولفظه: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «يكون في آخر هذه الأمة خَسْفٌ ومسخٌ وقَذْفٌ»، قالت: قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كَثُر الخبث».

وعن الغاز بن ربيعة مُرسلاً رواه ابن أبي الدُنيا بلفظ: «لَيُمسخن قومٌ وهم

على أريكتهم قردةً وخنازير بِشُربهم الخمر وضربهم بالبرابط والقيان». هكذا في الجامع الصغير رقم ٧٧٣١.

فهذه الأحاديث وما معها من الشواهد تُفيد صحةَ ما أخبر به صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من وجود المَسخ والخسف والقذف في هذه الأمة، وهذه أنواع من العذاب والهلاك والعياذ بالله.

معنى المسخ: والمَسخُ هو تحويل الخِلقة والصُورة وتغييرها من حالة إلى حالة.

وقد تمسك الخطابي وغيره بما ورد في ذلك بأن المسخ والخسف قد يَكُونان في هذه الأمة كما كانا في الأمم الماضية، قالوا: وزُعم أن مسخَها إنما يكونُ بالقلوب لا بالصُّور لا دليل عليه. وقال ابن تيمية: المسخ واقع في هذه الأمة ولا بدَّ وهو واقع في طائفتين علماء السوء الكاذبين على الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الذين قلبوا دينه، والمجاهرين المنهمكين في شُرب الخمر والمحارم، ومن لم يُمسخ منهم في الدُنيا مُسخ في قَبره أو يوم القيامة. وقال أيضاً: إنما يكونُ الخسف والمسخ إذا استحلوا هذه المُحرمات بتأويل فاسد، فإنهم لو يستحلوها مع اعتقاد أن الشارع حرَّمها كفروا ولم يكونوا من أمته، ولو كانوا مُعترفين بحرمتها لما عوقبوا بالمسخ كسائر من يفعل هذه المعاصي مع اعترافهم بأنها معصية.

وقال ابن القيم: إنما مُسخوا - يعني شَرَبةَ الخمر - قِردةً وخنازير لمُشابهتهم لهم في الباطن والظاهر مرتبط به أعم ارتباط، وعقوبات الرب جارية على وفق حكمته وعدله. اهـ.

وأقول: المسخُ حسب هذه الأحاديث واقع بطوائف من الناس كالقَدَرية[1]، والزَّنادقة، وعلماء السوء المداهنين المنافقين، وشربة الخمر المُدمنين عليها، ومُستحلي المحارم وأهل اللهو والغناء، وأكلة الربا، ولابسي الحرير، ولأنواع آخرين.

---

(١) انظر تعريفهم فيما تقدم.

وهذا المسخ قد يكون بمسخ الظاهر كمثل ما وقع اليهود حيث مسخهم الله قردة وخنازير، ويكونُ بمسخ الباطن وهو واقع في هذه الأمة بكثرة، ولعلّه المراد هنا، في هذه الأحاديث.

ومعنى ذلك أن الله تعالى يُغيّر قلوبَ بعض العصاة والمُنهمكين والمُسرفين وبعض المُبتدعة والمنافقين فيجعلها كقلوب بعض الحيوانات العَجْماء، فَيَمْسَخُ بعضهم قرداً وآخر خنزيراً والبعض الآخر ذئباً وفريقاً منهم كَلباً أو دُبّاً أو هراً[1]، وهكذا حَسب حكمةِ الله تعالى. ويظهر ذلك في أحوالهم وشُؤونهم ومعاملاتهم فيكونون ممسوخين قلباً، وإن كانت صورهم مظاهر للآدميين، وقد لُوحظ هذا المسخ في كثير من طَبقات الناس، ويُحتمل أنْ يكون هذا المسخ مَسخاً ظاهرياً باعتبار الأزياء والهيآت والمظاهر ولا أستبعد أن يكون التشبُّه بالكُفار من المسخ المُشار إليه، فإنه يُطلق عليه مسخاً لحصول التغيير للصورة الظاهرة فالمُتفرنجون كُلّهم فيما نرى ممسوخون قد مَسخَهم الله تعالى مسخاً صُورياً وهم لا يشعرون. وإذ مسخهم الله في ظواهرهم فهم بلا شك ممسوخون قلبياً، إذ الظاهر عنوان الباطن. ولذلك قَلَّما تجد متفرنجاً ذكراً كان أم أنثى مُستقيماً على الجادة، بل أكثرهم منحرفون، إما مَلاحِدةٌ كافرون أو فسقة فاجرون. ولا يُمكن لأي مسلم مهما بلغ في قوة الدين ومتانة الإيمان وأساليب الدعوة، أن يقلِبَ أوضاع هؤلاء المتفرنجين ويُغير عقائدهم الفاسدة ويدخلهم في الدين الصحيح والعقيدة السليمة إلّا من رحم الله وقليل ما هم، وما ذلك إلّا لمسخهم قلباً وقالباً.

ولِمَسْخهم رفع الله تعالى منهم الحياء والمُروءة والعِفّة والأخلاق الإسلامية السامية والفضائل الجميلة التي يأمر بها الإسلام، وجعلهم مُتصفين بالوقاحة والصفاقة والجُرأة والفجور والتهتك والإسراف في أنواع الجرائم والآثام، ولا

---

(١) وقد كُوشف بعض أهل الله تعالى عن جماعة من الناس بمسخ صورهم الظاهرة، فكان يرى الناسَ بعضَهم قرداً وبعضهم خنزير وهكذا، وهم في ظواهرهم آدميين عند الناس، وقد نص جماعة من أهل الله تعالى على أن مِن الناس من يُبعثون من قُبورهم ممسوخين حيوانات عجماء حسب أفعالهم المُنحرفة عن الشريعة في الدنيا، ومنهم من يمسخ في قبره، نسأل الله السلامة واللطف.

سيما نساءهم اللاتي يتجلى فيهن المسخ بأجلى مظهر تعرفه البشرية. ومن نازع في هذا فهو مسلوب العقل كالمتفرنجين، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه ممسوخ مثلهم، ولولا إنه ممسوخ الباطن لأدرك أن هذه الملابس السائدة اليوم في العالم على هذا الشكل المُشاهد في الرجال والنساء، المُزري بالإنسانية والفطرة الإلهية، الدال على سفاهة لابسيها وسقوطهم وجنونهم، أقول لأدرك أنها بشعة المنظر قبيحة الهيأة مذمومة عقلاً ومروءة وأخلاقاً، وبالتالي شرعاً.

ولو رجع عقلاء الإنسانية الأولون وبُعث الفلاسفة الأقدمون وقام الأخلاقيون والمصلحون، لحكموا على هؤلاء المجانين بالإنسلاخ مِن جميع الشرائع، ولما تَوقفوا في تسفيههم وتأخرهم وانحطاطهم في عالم الأخلاق الكريمة.

أما علماء السوء فالمسخ فيهم أظهر وأوضح من غيرهم لأنهم الرائدون الأولون لكل شر. ومسخ العلماء، وإن كان لا يخلو منه زمان، فهو في عصرنا أكثر، وأكثر ذلك أن علماءنا اليوم هم مصدر كُلِ وبال لأنهم قُواد الأمة ومُرشدوها وموجهوها، فإذا ما أصبحوا منحلين من الأخلاق، مُشاركين للمُنحرفين في السَقَطات والزَّلات، متطرفين متهتكين، فماذا عسى أن يفعل العامة والغوغاء[1].

أَضِفْ إلى ذلك مُداهنتهم ونِفاقَهم وكَتمَهم الحق أو لبسَه بالباطل ومُسايرة العصر وابناءِه، إرضاء للجماهير وإبقاء على مَكانتهم بين المجتمع. إن هذا وأمثاله وأضْعَافَ أضعافه، كلُ ذلك من آثار المسخ الذي عاقبهم الله به على جُرأتِهم على الله تعالى.

وأما الخَسْفُ فالمُراد به ذَهابُ المَكان ومَن عليه وغيبوبته في بَطن الأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنا به وبِدارِه الأرض﴾. وهذا الخَسْفُ قد حصل في

(١) وكذلك قال النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إنّ أخوفَ ما أخاف على أمتي كلُّ منافق عليم اللسان». رواه أحمد عن سيدنا عمر، والطبراني عن عمران بن حصين. وهو حديث صحيح، فالمنافقون من عُلماء اللسان هم الهدَّامون لشريعة الإسلام، المفسدون لعامة المسلمين لثقة الناس بما يَقُولون بألسنتهم وقلوبهم وأعمالهم بمعزل عن كل ما يُثرثرون ويتفيهقون.

عصرنا مرات متعددة في جميع الأقطار وكل أنحاء المعمورة، بل لا تَمرُّ بضعةُ أشهر بِدُون أن يَقَع في بعض البلاد. ولعل ما نزل بمدينة أكادير بمغربنا الأقصى العربي سنة ١٣٨٠ من أعظم الخسوفات التي شاهدَتْها الإنسانيةُ في عصرنا الحاضر، وما ذلك إلاّ لما كان ولا يزال في تلك المدينة من الفُجور وأنواع الفُسوق واللعب واللهو. وقد حدثنا عنها أنها فَاقَتْ أو كادت تَفُوق كل مدن المغرب في تلك الميادين المُجونية، ولذلك أنزل الله تعالى بها ذلك الخسف العظيم والزلزال الفظيع المدهش.

وقد جاء في صحيح مسلم في أشراط الساعة: «وثلاث خسوفات: خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ بجزيرة العرب». وجاء في صحيح البخاري عن عائشة في الجيش الذي يقصد مكة: «فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بأولهم وآخرهم» إلخ. ونحوه عن حفصة وأم سلمة في صحيح مسلم، وعن صفية في سُنن الترمذي من كتاب الفتن، فوجوده من أشراط الساعة. ففي المُسند وغيره عن بقيرة الهلالية أنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «إذا سمعتم بقوم قد خُسف بهم ههنا قريباً فقد أظلمت الساعة». سنده حسن.

فالخسف واقع والأحاديث به صحيحة كثيرة، وما قلناه عن الخسف هو ظاهر الأحاديث ويمكن أن يُراد به أيضاً خسف الوجوه بذهاب نورها وانقلابها مظلمة. وهذا أيضاً حاصل بكثرة نتيجة كثرة الفُجور والانحراف والانحلال من الشرائع، وقد شاهدنا ذلك في كثير من الناس وعلى الأخص في بعض من كان ينتسب إلى العلم.

وأما القذف فالمراد به الرمي، وهو يُحتمل أن يكون رَمياً بالحجارة عذاباً من عند الله تعالى كما وقع لقوم لوط ونحوهم. ويُحتمل أن يُراد به الرمي والقذف بالقنابل والصواريخ من الطائرات والمدافع والدبابات وغيرها من القاذفات، وهذا هو الظاهر وهو من أفظع أنواع العذاب الذي أرسله الله تعالى على أبناء هذا الجيل، وقانا الله والمسلمين شره.

وقوله: «القِيان» جمع قَينة، والمُراد بهن المُغنِّيات، والمعازف: جَمْع

معزف وهي آلة اللهو والدفوف ونحو ذلك. ووصَفه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم هؤلاء بشربهم الخمر وتسميتهم إياها بغير إسمها مع اتخاذهم المُغنيات وضرب المعَازف على رؤوسهم، هو وصف أبناء عصرنا وبناته تماماً، فهم يشربون الخمر ويُسمونها بالبيرة وسربيسة والجعة وعصير العنب وسيدي احسين وسيدي التازي ونحو ذلك، فيستحلونها ويعتقدون إباحتها ويجمعون بين ذلك وبَين أغاني الفاجرات الساقطات الراقصات في الليالي والسهرات، والمعازف تعزف عليهم إما بواسطة الراديو والتلفزيون، وإما مُباشرة بحضور أرباب العزف واللهو، ثم يضيفون إلى ذلك إباحة الزنا وفروج النساء. فالحالة الواقعية تطابق ما أخبر به صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم تَمامِ الانطباق، فصلى الله وسلم وبارك على هذا النبيّ العظيم وجعلنا من أتباعه والمِيتين على هديه ونهجه، آمين.

تذييل اختتامي

يظنّ كثير من الناس تبعاً منهم لبعض أهل العلم أن هذه القردة والخنازير الحالية هي من بقايا ما مسخ من بني إسرائيل، والواقع خلاف ذلك لأن الممسوخ لا يعيش ولا يكون له نسل.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل: يا رسول الله القردة والخنازير هي مماسخ؟ فقال النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إن الله عزّ وجل لم يُهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك». وفي رواية: «إنّ الله لم يجعل للمسخ نسلاً ولا عقباً». رواه أحمد رقم ٣٧٠٠، ومسلم في كتاب القدر من صحيحه ١٦/ ٢١٣ ـ ٢١٤ والسياق له.

فالحديثُ يدل على أن القردة والخنازير كانت موجودة قبل أن يمسخَ الله بني إسرائيل، وأن الممسوخ لا يعيش ولا يتناسل، وبهذا قال الجُمهور وهو المعتمد، وخالف في ذلك أبو إسحاق الزجاج وابن العربي الحاتمي وابن قُتيبة وغيرهم، واستدلوا بما يلي: عن أبي هُريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «فقدت أمّةٌ من بني إسرائيل لا يدري ما فعلت، وإني لا أراها إلا الفأر، إذا وضع لها ألبان الإبل لا تشرب وإذا وضع لها ألبان الشاة تشرب». رواه البخاري في بدىء الخلق، ومسلم في الزهد والرقائق، وفي رواية لمسلم: «الفأرة مسخ، وآية ذلك أنه يوضع بين يديها لبن الغنم» إلخ.

فهذا الحديث ظاهره يعارض ما سبق في الجُملة، يُمكن الجمع بين الحديثين باحتمال أن يكون صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال هذا الأخير قبل أن يُطْلِعه الله عزّ وجل على الواقع والحقيقة، ولذلك جاء في رُواية الصحيحين جَزْمه بكونها من بقايا الممسوخين وأنه استدل على ذلك بعلامة رآها فيها وهي كونها لا تشرب ألبان الإبل، وألبان الإبل كانت مُحرمة على بني إسرائيل تبعاً للحومها، وعليه فالفأرة من بقايا الممسوخين الإسرائيليين، ويؤيد ما قلناه أيضاً ما جاء في رواية ابن حبان رقم ١٠٧٠ من حديث عبد الرحمن بن حسنة بلفظ: «وأنا أخشى أن تكون هذه». وفي رواية عند أحمد وأبي داود وغيرهما عن ثابت بن وديعة: «وإني لا أدري أيّ الدواب هي».

فهذه الروايات تدل على أنه لم يكن جازماً بها. أما رواية مسلم العارية عن التردد، فهي إمّا أن تكون من تصرف بعض الرواة كما يقع ذلك كثيراً منهم، وإمّا أن يكون صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال ذلك أحياناً مُعتمداً على ما رآه من عَلامة فيها فجزم بذلك والله أعلم. وقد جاءت أحاديث كثيرة في الممسوخ من الحيوان لكنها كلها معلولة لا تصح، وبعضها مذكور في كتب المُوضوعات كحديث الزهرة وسهيل ونحو ذلك. وقد كان شيخنا الحافظ مولاي أحمد بن الصدّيق رحمه الله تعالى جمع في ذلك جزءاً سمّاه «شرف الإيوان في حديث الممسوخ من الحيوان»، رأيته عنده.

وهذا آخر ما تيسر جمعه، والحمد لله رب العالمين وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمّد أشرف المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين، ورضي الله تعالى عن آله الأطهرين وصحابته الأكرمين وعنا معهم يا أكرم الأكرمين، آمين يا رب العالمين.

وكان ذلك عشاء ليلة الأحد ثامن شوال من شهور سنة أربع وتسعين وثلاثمائة وألف.

ترجمة موجزة لعبد الله التليدي

نسبه

هـو الفقير إلى ربـه أبو الفتـوح عبدُ الله بن عبـد القادر بن أحمـد التليدي، يتصل نسبه بسيدي عبد الله بن مـولانا إدريس دفين فـاس بن مولانـا إدريس فاتـح المغـرب بن مولانـا عبد الله الكـامل بن مـولانا الحسن المثنى بن مـولانـا الحسن السبط بن الإمام علي ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت سيد العالمين ﷺ.

ولادته ونشأته

ولـد بقريـة الصاف من قبيلة بني جـرفط عمالـة تـطوان سنـة ست أو سبـع وأربعين وثلاثماية وألف.

وهاجر به والده مع باقي الأسرة إلى مدينة طنجة وسنـه دون العشرة. وحفظ القـرآن الكريم مبكـراً دون البلوغ على شيخه الفـاضل المـرحـوم السيـد عبـدالله عبـدالسلام بن حمـان الشقاف وختمـه تصحيحاً على جمـاعـة من المقـرئين، ثم انقطع عن القراءة وتقلب في عدة حرف ومهن وصنـاعات ومـرت عليه ظـروف قاسيـة وأصيب ببلايا ومحن في بداية شبيبته.

طلبه العلم ومشايخه في ذلك

ثم هداه الله تعالى للاشتغال بالعلم فشرع في طلبه وقد نـاهز العشـرين من عمره، فلازم المساجد وحلق العلم بـطنجة مـدة من ثمان سنـوات قرأ فيهـا على علمـاء المدينـة والطارئين عليهـا. فقرأ على العـلامة النحـوي السيد عبـد السلام الخنوس: الآجرومية وألفية ابن مالك ومرشد ابن عـاشر مـراراً، ورسالـة ابن أبي زيد

مرة وابن بري في قراءة نافع وبعض الشاطبية وهمزية البوصيري، ومقدمة جمع الجوامع في أصول الفقه، ولامية الأفعال والمنطق.

وقرأ على العلامة الشيخ عبد الله بن عبد الصادق التمسماني: ألفية ابن مالك ونور اليقين وتحفة الحكام ورسالة ابن أبي زيد وجمع الجوامع ومختصر خليل بالشرح الصغير للدردير في الفقه المالكي.

وقرأ على العلامة الفاضل السيد عبد الحفيظ كنون: السنوسية في التوحيد ورسالة ابن أبي زيد مرتين ومختصر ابن أبي جمرة وسنن ابن ماجه إلى النكاح وبعض صحيح البخاري.

وقرأ على العلامة المحدِّث السيد عبد العزيز بن الصديق: سنن الترمذي من أوله إلى نهايته، وألفية العراقي في علم الحديث ونخبة الفكر وتفسير الجلالين إلى سورة هود وغير ذلك.

وقرأ على العلامة الأصولي السيد عبد الحي بن الصديق: نخبة الفكر ومفتاح الوصول وطرفاً من سبل السلام والجوهر المكنون.

وقرأ على العلامة الشيخ الزمزمي بن الصديق: بلوغ المرام وطرفاً من لب الأصول.

وقرأ على العلامة المحدِّث السيد محمد المنتصر الكتاني ـ نزيل مكة المكرمة ـ: البيقونية في علم الحديث وورقات إمام الحرمين في أصول الفقه ونور اليقين وخمسة أحزاب من تفسير القرآن الكريم.

وقرأ على العلامة السيد أحمد بن حسين: التفسير من أوله إلى سورة المائدة والجوهر المكنون في البلاغة.

وقرأ على العلامة النحوي السيد الحسن اللمتوني: ألفية النحو مراراً.

وقرأ على العلامة محمد السكيرج: المقنع في الفلك والتوقيت والحساب وبعض الكتب الأدبية.

وقرأ على العلامة الأديب عبد الله بن عبد الصمد كنون: ورقات إمام الحرمين.

وقرأ على العلامة محمد الساحلي الوسيني: توحيد ابن عاشر ورسالة ابن أبي زيد وجملة من التفسير.

ثم شد الرحلة إلى فاس فقرأ مقدمة جمع الجوامع على العلامة السيد عبد العزيز بن الخياط، وتوحيد ابن عاشر على العلامة العباس البناني، ومختصر خليل على السيد إدريس العراقي. ولكنه لم تطل إقامته بفاس لاضطرابات وفتن كانت ألمت به من طرف فرنسا.

ثم اتصل بشيخه الحافظ سيدي أحمد بن الصديق فلازمه وقرأ عليه كثيراً واستفاد منه، وتدرب به في علم الحديث الشريف وانتفع بعلومه انتفاعاً جماً. وله مشايخ آخرون كثيرون سيضمنهم معجمه إن شاء الله تعالى.

مرحلته بعد نهاية الطلب

ثم استقل بنفسه فلزم بيته واعتكف على القراءة والمطالعة فقرأ كتباً كثيرة في مختلف الفنون والعلوم من تفسير وحديث وشروحه وفقه على سائر المذاهب وأخلاق وتربية وسلوك وتراجم وتاريخ وسير وجغرافيا وفلك وتوقيت وأصول وفلسفة وغير ذلك. والعلوم التي يميل إليها ويشتغل بها في نفسه بكثرة هي التفسير والحديث والفقه على سائر المذاهب والآداب والأخلاق والزهديات والرقائق.

مؤلفاته

وله تآليف كثيرة فيها المطبوع والمخطوط وهي كالآتي:

الصارم المبيد، منهاج الجنة، المرأة وفتنتها، أسباب هلاك الأمم، من عجائب الأقدمين، اختصار الاستنفار، المطرب بمشاهير المغرب، حياة الشيخ، نشر الأعلام، تحفة القاري، قمح الأغبياء، تهذيب الخصائص الكبرى، وهذه كلها مطبوعة.

الاعتصام في السنة، الإيمان في السنة، العلم في السنة، المبشرون بالجنة، اقتضاء السبيل، تهذيب جامع الترمذي، زوائد الترمذي على

الصحيحين، صحيح جامع الأصول لم يتم، مفتاح لأحاديث التاريخ الكبير للبخاري، مفتاح لأحاديث المعجم الصغير للطبراني، البراهين السامية في توحيد السلف، القنوت في السنة، الطرح والرفض، البغية في العزلة، الاحتساب فيما خالف فيه المالكية الأصحاب، أحكام الجمعة وأسرارها، فضائل القرآن وسورة في السنة الصحيحة، در الغمام الرقيق اختصار سلوة الأنفاس، إرسال القنابل، وهذه كلها مخطوطة وبعضها لم يتم بعد.

حالته الشخصية وسيرته

هو الآن متزوج وله أولاد ثمانية ذكور وإناث، ثلاثة من حفظة القرآن الكريم، وأكبرهم من طلبة العلم. وله أربعة إخوة ووالداه توفيا منذ عشرين سنة.

وله مسجد تقام فيه الصلوات الخمس والجمع ويتولى بنفسه الخطابة فيه وتدريس العلوم الإسلامية مع الطلبة حفظة القرآن الكريم، وله من الطلبة حالياً نحو من سبعين وهو على هذه الحالة أكثر من ربع قرن، وليس له راتب يتقاضاه من أحد وإنما يعيش على ما يفتح الله تعالى به من فضله. ومن نعم الله تعالى عليه أنه لم يتملق لأحد من أرباب الدولة للحصول على وظيفة أو مساعدة، كما إنه لم يدخل أحداً من أولاده المدرسة العصرية لفساد أهلها عقائد وأخلاقاً وأفكاراً.

وهو قوالٌ للحق آمر بالمعروف ناه عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم شديد على الكفار والملاحدة والشيوعيين والصهاينة وعملائهم، بعيد عن المتفرنجين ومقلدة الغربيين وقد لقي مضايقات كثيرة تعسفية من طرف السلطة وامتحن لذلك في الله وسجن.

عزوفٌ عن الدنيا معرض عنها وعن أهلها، منقطع في بيته ومسجده، مشتغل بما يهمه، أوقاته عامرة ما بين قراءة ودراسة وتأليف وعبادة، لا تراه خارج بيته إلا لحاجة أكيدة متفانياً في محبة الله ورسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. متواضع بعيد عن التعاظم، حسن النية والظن، رقيق القلب أواه كثير الرجوع إلى الله، شديد الخوف من ربه يبكي كثيراً عند تلاوة القرآن وعند تذكر الموت والقبر ومشاهد القيامة، شغوف بالحج وزيارة المدينة ولذلك فقد قضى الله له أن يحج أكثر من خمس عشرة مرة.

ورأى النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في المنام كثيراً وبشره ببشارات ورؤيت عليه مرائي عظيمة يرجو الله تحقيقها.

وتجول في أكثر البلاد الإسلامية وغيرها فدخل الجزائر وتونس وليبيا ومصر مراراً والحجاز والكويت والعراق والأردن وفلسطين وسوريا ولبنان وتركيا، ولقي في هذه الأقطار كثيراً من العلماء والمفكرين والصالحين والمتعبدين.

وله تلاميذ لا يحصون كثرة فيهم الأئمة والخطباء والأساتذة والمهندسون والقضاة والمنقطعون إلى الله تعالى.

وهو الآن لا يزال على قيد الحياة وعمره يناهز الستين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتب بتاريخ ٩ جمادى الثانية ١٤٠٦ بطنجة

الفهرس

كلمة إجمالية عن حالتنا ومقاصد الكتاب ومحتوياته ٥
المعاصي والتحذير منها وعلامتها ٩
أنواع المعاصي وأمثلة منها ١٠
بيان أن الصغيرة قد تصير كبيرة ١٢
دواء الذنوب والآثام ١٥
التوبة وشروطها ١٨
التحذير من المعاصي والذنوب ٢٠
الذنوب والآثام مصدر كل مصيبة وشقاء ٢١
شؤم الذنوب قد يتسرب لغير المباشرين من سائر خلق الله تعالى ٢٣
تنويع الله لعباده أسباب الهداية بالخير والشر ٢٨
ما كان الله ليعذب قوماً حتى يبعث لهم رسولاً لإقامة الحجة عليهم ٢٦
وجوب الحذر والإشفاق من نقمة الله ٢٧
رحمة الله لعباده ورفعه عنهم العذاب ليرجعوا وتماديهم في ضلالهم ٢٩
استدراج الله العباد وإملاؤه لهم ٣٠
الله غني عن ظلمنا ولا يهلك قوماً صالحين ولا أمة مُصلحة ٣١
عذاب الله خاص بالظالمين والمجرمين والمنحرفين ٣١
انتقام الله يستوي فيه الكافر وغيره ٣٢
المترفون والأغنياء ومواقفهم إزاء دعوة الرسل ٣٤
موقف الضعفاء من دعوة الرسل ٣٥
لا يَعتبر ربنا مِن خلقه إلا الموحِّدين له ٣٨
الاعتبار بالأمم الغابرة والاتعاظ بأحوالهم ٣٩
هلاك الأمم والأجيال في القرآن الكريم ٣٩
حالة الإنسان عند حلول العذاب به ٤١
استبدال الله بقوم آخرين ٤٢
أنواع العذاب التي يُهلك الله بها الأمم ٤٣
بعض أحاديث نبوية جاءت في أسباب الهلاك ٤٦
هلاك العرب وحلول الشر بهم ولو مع وجود الصالحين إذا كثر فيهم الخبث ٤٦
هلاك الأمم بالاختلاف في كتب الله ٥١
كثرة السؤال والاختلاف على الأنبياء ومَنْ في معناهم ٥٦
الغُلُو في الدين ٥٨
التنافس في الدنيا ٦٢
الهلاك بالشّح ٦٦
ظهور الربا والزنى وتعاطي الرشوة ٦٧
البَخسُ في الكَيْل والميزان ومنعُ الزكاة ونقضُ العهود وعدمُ تنفيذ أحكام الله ٧٣
ظهور أولاد الزنا ٧٤
ظهور المعاصي وعدم تغييرها ٧٧
مراتب الإنكار على أهل المعاصي ٨٠
إقامة الحد على الضعيف وترك الشريف ٨٢
اتخاذ القَصَّة ووصل شعر الرأس بغيره ٨٦
مخالفة أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم توجب الذل والصَّغار ٨٩
ترك الجهاد والإخلاد إلى الحياة ٩٣
استحلال العرب لبيت الله الحرام ٩٦
الأغيلمة القرشيون ١٠٠
هلاك بعض أصناف هذه الأمة لأشياء يرتكبونها ١٠٣
القردة والخنازير الحالية والكلام عليها ١١٠
ترجمة موجزة لعبدالله التليدي ١١٣
نسبه وولادته ونشأته ١١٣
طلبة العلم ومشايخه في ذلك ١١٣
مرحلته بعد نهاية الطلب ١١٥
مؤلفاته ١١٥
حالته الشخصية وسيرته ١١٦

يصدر قريباً

من عجائب الأقدمين وعبرهم

للشيخ عبد الله التليدي

٣٠ / ١٧ / ١٢ / ٠٦

أعدها على صيغة PDF فوزي أكريم